كان مَا كان

عنوان الكتاب : كان ما كان

تأليف : ميخائيل نعيمة

اختيار وتقديم : مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/61/حزيران

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

كـــان مَـــا كـــان

تأليف
ميخائيل نعَيمَة

اختيار وتقديم

مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (61)

ميخائيل نعيمه

1889 ـ 1988م

مالك صقور

قامة إبداعية شامخة في واحة الأدب الإنسانية. تمتع بموهبة فذّة، قلّ نظيرها.

صافي الذهن، متوقّد القريحة، حاضر البديهة، عربي اللسان فصيحه، حرُّ الضمير والوجدان، إنساني النزعة، شمولي الرؤية والرؤيا، موسوعي المعرفة.

شاعر، قاص، روائي، مسرحي، ناقد، فيلسوف، متصوف، مؤمن حقيقي، سبر أغوار الأديان، فقبض على الجوهر فيها، ورمى القشور والطقوس البالية، وحارب الخرافات والشعوذات. نبذ التعصب والعصبية، ودعا إلى الحب والمحبة والتسامح والإخاء والعدالة والمساواة.

انحاز إلى الفقراء والمقهورين والمحرومين والمظلومين، وكان عدو التكبر والغرور والتسلط والاحتكار ورأس المال، وصغار النفوس.

فهم بعمق وظيفة الأدب والفن، وأن للأديب رسالة، ومن غيرها لن يكون أديباً.

ذلكم هو ـ الكبير الكبير ميخائيل نعيمه

***

ولد ميخائيل نعيمه في قرية "بسكنتا" في سفح جبل صنين، عام 1889م. تعلّم في مدرسة القرية الابتدائية البدائية. وفي عام 1896، افتتحت روسيا في هذه القرية مدرسة روسية. عن ذلك يقول ميخائيل نعيمه في سيرته الذاتية "سبعون": "**فقد كان المسلَّم به عند سكان لبنان في عهد المتصرفية، أن روسيا هي الحامية التقليدية للروم. وفرنسا للموارنة. وبريطانيا للبروتستانت والدروز، وتركيا للمسلمين، إلا أن روسيا بزّت منافساتها بأنها راحت تفتح للروم مدارس مجانية في كل من فلسطين وسوريا ولبنان. وكانت تنسّق برامجها وإداراتها على أحدث طراز**". وتقديراً لتفوّق ميخائيل نعيمه في دروسه، كان من المحظوظين من طلاب المدارس الروسية الكثيرة في لبنان وسوريا وفلسطين الذين أُتيح لهم الالتحاق بدار المعلمين الروسية في مدينة الناصرة بفلسطين. حيث تابع تحصيله العلمي في دار المعلمين الروسية أربع سنوات (1902 ـ 1906).

وكما تفوّق في المدرسة الروسية في قريته بسكنتا، تفوّق أيضاً في دار المعلمين في فلسطين. ومكافأة على تفوقه واجتهاده وحُسن سلوكه، وقع الاختيار عليه لمتابعة الدراسة العليا في روسيا. قضى في روسيا خمس سنوات في بولتافا ونال شهادته، وفي ربيع 1911 غادر روسيا إلى لبنان. وفي خريف العام نفسه، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يقيم ويعمل أخوه ديب. وفي خريف 1912 انتسب إلى جامعة ولاية واشنطن في مدينة (سياتل). ليتخرّج منها عام 1916، حاملاً إجازتين في الآداب والحقوق، وفي عام 1918 خدم في الجيش الأمريكي، وشارك مع فرقته بالسفر إلى فرنسا. إلا أنه لم يطق

الحياة العسكرية التي دامت سنة كاملة، سُرِّح بعدها، وعاد إلى أمريكا عام 1919، حيث التقى جبران خليل جبران، وإيليا أبي ماضي ورشيد أيوب وأسسّوا الرابطة القلمية. وبقي في أمريكا حتى عام 1932.

يقول ميخائيل نعيمه: " **في التاسع عشر من نيسان عام 1932 أدرت ظهري إلى تمثال الحرّية في مدخل نيويورك والدائر ظهره إلى المدينة والبلاد التي من خلفها حيث بذرت عشرين من سني فتوتي ورجولتي. وعندما أحصيت "ثروتي" من الدولارات وجدتها لا تفيض عن تكاليف العودة إلى بلادي إلا بمبلغ لا يكاد يغري أي سارق أو نشّال.**

لقد خرجت من بلاد الثروات الأسطورية خروج الشعرة، من العجين".

***

امتلك ميخائيل نعيمه ناصية اللغة العربية، وأحبّها كما يقول، وبدأ ينظم الشعر، وهو ابن الرابعة عشرة، لكنه لم يحتفظ بتلك القصائد التي نظمها وهو في فلسطين، ويذكُر ميخائيل نعيمه فضل (ألفية ابن مالك) عليه، وابن عقيل وابن المقفع. في تلك المرحلة التي أمضاها في فلسطين درس الأدب العربي من وضع أحد المستشرقين الروس. ويذكر أيضاً، أنه على الرغم من مضي أكثر من نصف قرن على دراسة (ألفية ابن مالك) فما زال يحفظ الكثير من أبياتها، ويردده، وهو يعد أن ابن مالك في ألفيته هذه قد اجترح معجزة، ضمنها قواعد النحو. ويأسف ميخائيل نعيمه أنه يخالط الأجيال الجديدة التي لا ترى بمعجزة ابن مالك أي أثر، لأنها أجيال تكفر بالمعجزات،

وتكفر حتى بالكثير من قواعد النحو، يقول: "**أي، لقد تغيرت الأزمنة، وتغيرت الأشياء. وتغير حتى نبض الحياة يا ابن مالك، فلم يبق لمثلك في هذه الدنيا مقام ـ إلا في قلب هذا القلم الذي يسلّم عليك ساعة ولدت وساعة مت وساعة قلت:**

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   اسمٌ وفعل ثم حرف الكلم

***

في شتاء 1910، نظم قصيدة "**النهر المتجمد**" باللغة الروسية وقد أوحاها إليه منظر نهر "صولا" وقد مشى على وجهه المتجمد وزملاءه. لكن سبب ذهابه إلى نهر "صولا" ومدينة (رومني)، هو أنه فُصل من مدرسة (السمنار) في بولتافا. والسمنار مدرسة فوق الثانوية يمتد برنامجها لستِّ سنوات. الأربع الأولى منها مكرسة للدروس العلمانية وبعض المواد الدينية. والاثنتان الأخيرتان للطقوس والعقائد الكنسية. وهذا النوع من المدارس في روسيا كانت تنفق عليه وتستقل بإدارته الكنيسة الممثلة في "**السينودوس**" ـ أي (المجمع المقدس) وحدث أنه في نهاية شتاء 1909، حصل إضراب في هذه المدرسة. وهاج الطلاب وماجوا، يطالبون بالحقوق المهضومة والحريات السليبة. ويندّدون بالقيصر وسياسته ورجاله. وصار الطلاب يتبارون في الصعود إلى المنبر، وطلب زملاؤه منه أن يلقي كلمة فاعتذر لأنه غريب وضيف، لكن لم يقبل الزملاء الطلاب باعتذار ميخائيل، بل حملوه إلى المنبر. "**وها أنا على المنصة تحدق إلي ألف عين، وتصفق لي ألف كف**

وأكثر، فهل أقف وقفة أبي الهول؟ هل أنزل عن المنصة وأهرب من هؤلاء الرفاق الطيبين، فكأنني لست منهم بخلٍ أو بخمرٍ؟ أليس يضيمني الذي يضيمهم، ويفرحني الذي يفرحهم؟ وهل أنا في الواقع غريب عنه، وقد أصبحت واحداً منهم؟ إنما الغربة غربة الأفكار والقلوب ـ غربة النفوس، لا غربة الديار، وإذن فلن أنزل عن المنصة، لن أهرب من رفاقي، لن أُخيِّب هذه العيون المصوبة إليَّ، وهذه الأكف التي تدعوني إلى الكلام". ومما قاله: "نطلب خبزاً فيعطوننا حجراً، ونطلب سمكة فيعطوننا حية". وقد أخذها من قول السيد المسيح: "أي إنسان فيكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً؟ أو إذا سأله سمكة يعطيه حيّة".

هذا الموقف، كلّفه غالياً جداً، كما يقول، إذ صدرت الأوامر بإقفال المدرسة، واستدعاه المدير إليه وكان قبل ذلك يعطف عليه أكبر العطف؛ ليقول له: **"ما دام خبزنا في فمك حجرة، وسمكنا حيات، فما عليك إلا أن تعود إلى الجمعية التي أرسلتك إلينا".**

وهنا، وقع ميشا الثائر (ميشا تصغير ميخائيل)، في حيص بيص. وكان عليه أن يقضي قرابة عام، حتى سُمح له بعد الوساطات الكبيرة أن يقدم الامتحان النهائي لنيل شهادته، فأنقذه أصدقاؤه، إذ دعوه إليهم، وكان قد اشتد الصقيع والبرد، وتجمد النهر القريب منهم، فنظم قصيدة (**النهر المتجمد**):

يا نهرُ، هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير؟

أم قد هرمت وخار عزمك عن المسير؟

...

لكن سينصرف الشتّا وتعود أيام الربيع

فتفك جسمك من عِقَالٍ مكنته يد الصقيع

...

يا نهر ذا قلبي، أراه، كما أراك مكبلا

والفرق أنك سوف تنشط من عِقالك وهو.. لا

يقول: "**وقد شئت أن أرمز بالنهر إلى روسيا. فرحت، من بعد أن وصفت النهر المكبل بالجليد، أخاطبه فأقول إن الربيع لا شك آتٍ وهو سيفكّه من أصفاده، وأختم القصيدة بمقطع أوجهه إلى "أمنا روسيا" فأسأل متى يذوب جليدها ويأتي ربيعها فيبصر الفلاح والعامل فيها أياماً يتذوق فيها شيئاً من العدل والكرامة**".

ربما كانت القصيدة باللغة الروسية أقوى، وأبلغ وأجمل، مع أن المترجم هو الشاعر نفسه، ولا أعرف، لماذا استبدل ميخائيل نعيمه، المقطع الأخير، مخاطباً فيه قلبه وليس روسيا عندما عرّب القصيدة.

قرأ ميخائيل نعيمة الأدب الروسي بلغته الأم، وتأثر بالكتّاب الروس أمثال بوشكين وليرمنتوف وتورغنيف، ودوستويفسكي، وتولستوي وتشيخوف وغوركي.

يقول: "**أما بيلينسكي ـ سيد النقاد الروس بلا منازع ـ فقد كشف لي عن مواطن الصدق والقوة والخير والجمال في العمل الأدبيّ، وعن سمو وظيفة الأدب، إذا هو أحسن تأديتها، بالنسبة إلى**

نفسه، وإلى الحياة حواليه، وإلى الذين يقرؤونه، وما من شك على الإطلاق في أن ذلك العملاق كان له أكبر الأثر في النهضة الأدبيّة الجبارة التي شهدتها روسيا في الماضي وأوائل الحاضر".

ولقد تجلّى ذلك عند ميخائيل نعيمة في كتابه الرائع (الغربال) الذي كتبه في أمريكا وانتهى منه في نهاية العقد الثاني من القرن الماضي وقدم له عباس محمود العقاد في آذار عام 1923. والغربال، كتاب فريد من نوعه، إذا ما أخذنا بالحسبان الزمن الذي كتب فيه، وهو مطلع القرن العشرين، مع ذلك ما زال هذا الكتاب هاماً ليس للطلاب فحسب، بل للمشتغلين بالنقد الأدبي، إذ يذكرهم بألف باء النقد، وألف باء الغربلة. يقول العقاد: "**وإني لأعرف كيف يستحق النعيمة التهنئة بجرأته التي ظهر بها في مقالاته وصراحته التي تقدم بها إلى غربلة الناس والكتب والآراء لأنني أعرف الآراء المستحدثة وما تجلبه على أصحابها من الغضب والملاحاة في بلاد العالم أجمع وفي بلاد الشرق خاصة... وإن بين أيدينا الآن لهدية من أنفس هدايا تلك الحرية المباركة وروحاً من الحياة تهب على مقاييسنا الأدبية الآلية البالية. فلنفهمها مخلصين ولنتقبّلها شاكرين معجبين**".

***

"**الآباء والبنون**"، مسرحيته الأولى، وكان قد نشرها قبل أن ينشر قصائده في مجموعته "**همس الجفون**" صدرت هذه المسرحية في عام 1916. والعنوان يذكر برواية "تورغينف" الشهيرة، التي تحمل العنوان نفسه، ولكن ميخائيل نعيمة، لا يذكر ذلك أنه على الأقل،

أخذ العنوان من "**تورغينف**"، مع أنه أعجب جداً برواياته، وموضوعاته. ولكن ومع تشابه العنوان، إلا أن مضمون رواية "**تورغينف**" يختلف عن مضمون مسرحية ميخائيل نعيمة. لكن الموضوع واحد، وهو صراع الأجيال وانتصار الجديد على القديم. بالإضافة إلى فضح العادات والتقاليد المبنية على خرافات وشعوذات، وانتماءات مذهبية وطائفية، لا تمت إلى الدين بصلة. يقول في مقدمته للمسرحية، وهو يتحدث عن "النهضة الأدبية" لكن "نهضتنا الأدبية، لا تزال في القُمُط، وما نطقت به حتى اليوم، ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيد اللسان محدود العواطف ضعيف العقل. إذا شئنا أن نرفع آدابنا من المستنقعات التي نتمرغ فيها الآن، فعلينا أن نسعى منذ اليوم لوضع أسس متينة للمسرح العربي، وذلك بتربية أذواقنا التمثيلية، وتعزيز الرواية الوطنية، حتى إذا نهضنا كانت "نهضتنا" نهضة جبار أفاق من نوم طويل، لا نهضة عاجز فتح عينه ليرى الموت أمامه". هذا ما كتبه ميخائيل نعيمة في نيويورك عام 1916.

أما مسرحيته "**أيوب**" فمختلفة تماماً عن الأولى، شكلاً ومضموناً، وهو يتناول موضوع النبي أيوب وقصته الواردة في التوراة، لكن المؤلف هنا، لا يتقيد بقصة أيوب المعروفة إلا بأبرز الأحداث، وغاية ميخائيل نعيمة من هذه المسرحية هو العقاب والثواب. هذه القضية التي كانت، وما برحت من أعقد القضايا في حياة الناس، كما يقول هو نفسه.

***

في كتابه "**البيادر**" نقرأ ستاً وعشرين مقالة، فيها ما فيها من الحكمة والفلسفة والقصة، والبلاغة، ما لا تجده إلا في بستان ميخائيل نعيمه. والبيادر التي لم نعد نراها اليوم، يصورها ميخائيل نعيمة تصويراً فائق الدقة، وكأن القارئ نفسه هو الذي يفرش السنابل، وهو الذي يحضر النورج، وهو الذي يطعم الثورين، لكن وراء بيادر ميخائيل نعيمة بيادر أخرى: "**إني لأشفق على من يمر ببيدر مفروش بالسنابل فلا يبصر عليه غير السنابل، أو ببيدر عليه نورج يجره ثوران فلا يرى غير نورج يجرّه ثوران. أو ببيدر عليه كومة من تبن وحب ومذراة تلقمّها الهواء.. فللبيادر ظاهر وباطن مثلما لكل شيء. ومن فاته التمتع بما تبطنت عنه البيادر فاتته متعات للروح أين من نعومتها خشونة الظواهر**". ومن ثم يسرد المؤلف، مراحل البيادر أو الدريس، ويختم قائلاً: "**تلك هي حكاية البيادر الوضيعة التي ما كنت أرويها لكم لولا اعتقادي أن كل واحد منكم بيدر، وأنكم الزارعون والحاصدون والدارسون والمذّرون والمغربلون. فالويل لزارعي الزؤان لأنهم زؤاناً يحصدون. والويل لحصادي القطرب والعوسج لأنهم قطرباً وعوسجاً يدرسون. والويل لمذري التراب والحصى لأنهم تراباً وحصى يغربلون. ثم الويل لمن لا يحسن غربلة بيدره بيده وغرباله فذاك لن يجد لبيدره مغربلاً**".

إقرؤوا: (القصر والمعمل): اكتب يا شمشون:

"أيها السارقون نوم الحزانى كيف تهجعون؟

أيها اللابسون عُرْيَ اليتامى كيف تدفأون؟

أيها الكارعون ري العطاشى كيف تُنقعون؟

أيها الآكلون خبز الجياع كيف تشبعون؟
أيها الراضعون ثُدي الثكالى كيف تسمنون؟
أيها السائقون ظعن المنايا كيف تهزجون؟
أيها المستحمون بالدم الحي كيف تطهرون؟
أيها المدلجون، إذ يُقبل الفجر أين تدبرون؟
أيها البائعون سم الأفاعي هل سوى السم تربحون؟".

وإقرؤوا أيضاً: "**بلاد دينها في فمها**": وكأن ميخائيل نعيمة، يتحدث الآن وفي هذه الأيام بالذات، وخاصة ما يجري في الوطن العربي، لا بل في هذا المشرق مهبط الديانات السماوية، وأرض الأنبياء. يقول: "**ألا ليت الدين الذي في فم بلادكم وبلادي كان في قلبها. لأن ديناً تزرعونه في الفم دون القلب لدين لا يزهر ولا يثمر**".

.. "**إن أمة دينها في فمها دون قلبها لأمة لا تعرف التعاون. وأمة لا تعرف التعاون ولا تعرف الإخاء. وأمة لا تعرف الإخاء لا تعرف المحبة، وأمة لا تعرف المحبة لا تعرف الله، وأمة لا تعرف الله لا حياة لها**".

***

في روايته "**مرداد**" يضع نعيمه حكمته وفلسفته ونظرته البعيدة في الكون والإنسان، والرواية آية من البلاغة الهادفة، والرؤية الصوفية، ويصل القارئ إلى نتيجة يؤمن بها ميخائيل نعيمة، ألا وهي خلود الروح وفناء الجسد، لأنه يؤمن بالتقمص.

أمـا في مقالـته: "**كـبار الـنفوس وصـغارها**" فقـد عـبر، وشـرح، وعلم، واختصرُ هذه المقالة القيمة بتشبيه له، إذ يقول: "

"خيرُ مـا تمـدح به أيّ إنسان قولك فيه إنه ذو نفس كبيرة، وشرٌّ ما تذّم به أيّ إنسان قولك إنه ذو نفس صغيرة، ولولا كبار النفوس في الأرض لكانت جحيماً، ولـولا صـغار الـنفوس لكانـت نعـيماً. أولـئك كالـنحل وهـؤلاء كالـذباب. فبيـنا تعـيش الـنحلة مـع الأزهـار، ومـع الأزهـار، تعيش الذبابـة في الأقـذار ومـن الأقـذار، الـنحلة تحمـل البرء للسقيم، والذبابة تحمل السقم للبريء".

***

"**أبعـد مـن موسـكو ومـن واشـنطن**" هـو الـكتاب الـذي كـتبه ميخائـيل نعـيمة في عـام 1957. وقـد أوحـت للكاتـب زيـارة قـام بهـا إلى الاتحـاد السـوفيتي، بدعـوة مـن اتحـاد الكـتّاب السـوفييت في موسـكو 1956 وقـد قـام المؤلـف بهـذه الـزيارة وكلـه شـوق إلى الإطـلاع عن كثب علـى مـدى الانقـلاب الذي أحدثته الثورة الشيوعية في روسيا. وفي البلاد الـتي عـاش فـيها زهـاء خمس سنوات، وتعلّم في مدرستها، وأتقن لغتها، وأحـبّ كتابتها، وأشـفق علـى شـعبها الغـارق في مملكـة الظلام. فبعد خمسين عاماً على مجيئه إلى روسيا، يقوم ميخائيل نعيمة بهذه الزيارة. وهـو يطلـب مـن القـارئ أن يطالـع هـذا الكـتاب بعيـنين مجـردتين عـن الهوى، علـى قـدر مـا يستطيع التجرد عن الهوى. ويتمنى على القارئ أن لا يحـاول وضـع أو تصنيف الكـاتب في هذا المعسكر أو ذاك. يقصد،

المعسكر الشيوعي، أو المعسكر الرأسمالي: "فالمعسكر الوحيد الذي أنتمي إليه هو معسكر الإنسان التواق إلى فهم النظام السرمدي لينعتق من ربقة الجهل وكل ما يولّد الجهل من قلق وخوف وبغض وتنافر بين الناس، وهذا المعسكر لا يرغي، ولا يزبد، ولا يقرع الطبول، لأنه يؤمن أعمق الإيمان بأن الإنسان أخ للإنسان أينما كان، ومن أيما لون أو عقيدة، أو لسانٍ كان؛ وبأن الأخوّة تقضي بالتعاون لا بالتنابذ، وبالتشاور لا بالتناحر، وبالتصافي لا بالتجافي. فمن أنصف أخاه أنصف نفسه، ومن أظلم أخاه ما ظلم غير نفسه، ومن استباح دم أخيه أباح دمه لإبليس. و"**من حفر حفرة لأخيه وقع فيها**".

فميخائيل نعيمة يؤمن أعمق الإيمان بالإنسان وعبقريته التي بغير حدود ويؤمن بالنظام السرمدي الذي من وراء الإنسان وعبقريته. وكما يقول، "**أن العالم ينقسم إلى تيارين كبيرين، أو كتلتين ضخمتين**" وتجري المماحكات حول أيهما الأفضل: الرأسمالية أو الشيوعية؟

ومما يزيد في ألم الكاتب، أن البلدين الجبارين، اللذين يثيران هذا الاختلاف، هما بلدان تربطه بهما أوثق الصلات. فقد عاش في روسيا وأحبها، كما مرّ معنا، وعاش فترة أطول في رحاب أميركا. والذي يريده الكاتبُ من القارئ وحاول من كتابه هذا، أن يبيّن ما يدعونه "**نضالاً**" بين الرأسمالية والشيوعية من إطاره الضيق إلى إطاره الأوسع حيث تبدو الرأسمالية والشيوعية موجتين لا أكثر من أمواج الخضم البشري..

ينفي الكاتب معرفته بالشيوعية، ويعترف أنه لم يستطع أن يقرأ كتاب "**رأس المال**" لماركس، ولم يقرأ شيئاً لدعاة الماركسية انجلز ولينين وستالين، لكنه سمع كثيراً، وقرأ عنها. ومع ذلك يقول: "فالشيوعية ما وُلدت يوم وُلد ماركس. ولا قامت لها دولة يوم قام لينين وأعوانه من حزب "البلشفيك" بثورتهم في عاصمة القياصرة، ولكنها كانت جنيناً في رحم الإنسانية المعذبة مذ راح الناس يعيشون جماعات يستثمر بعضها بعضاً.... لا. ما هو ماركس ولا لينين ولا ستالين الذي خلق الشيوعية. بل هو القلق من الفساد في النظم القائمة... فإذا نحن تنكرنا للشيوعية لمجرد أنّها تغاير بعض النظم والأوضاع التي ألفناها فأي فارق إذ ذاك بيننا وبين الذين تنكروا للمسيحية والإسلام في أول نشأتهما".

لقد شرح ميخائيل نعيمة معنى الشيوعية والإلحاد، ومعنى الشيوعية والحرية، أفضل من أي مُنظّر شيوعي، وهو ليس شيوعياً. ولو قرأ شيوعيو الاتحاد السوفييتي والعرب، وغيرهم، كتاب ميخائيل نعيمة هذا، لما تزعزعت قناعتهم بالشيوعية، ولدافعوا عن منجزاتهم، ومكتسباتهم، برموش عيونهم. لأنه شرح ما كانت عليه روسيا القيصرية، وما وصل إليه الاتحاد السوفيتي بفضل الاشتراكية، التي رفعت الإنسان، وبنت له دولة الإنسان.

يختم ميخائيل نعيمة، كتابه بعد أن يقارن، ويعلل، ويشرح، ثم يستنتج أن الاشتراكية، أو الشيوعية هي (دين أرضي)، ثم يقول: "**إن النظام البشري الأمثل لم تعرفه أرضنا بعد، والنظم التي أقمناها منذ أول عهدنا بالأرض، والنظم القائمة اليوم إن هي إلا تجارب لا أكثر**".

***

في دراسته لقصص ميخائيل نعيمة، تناول الدكتور علي حجازي بالتفصيل قصصه، وهي دراسة شاملة ناجحة وموفقة، وعن مجموعته (كان ما كان) التي بين أيدينا، يقول د. حجازي: "**في أقاصيص نعيمة الأولى (كان ما كان) إشارة إلى موازين مقلوبة، فخطّار مع خطيبته، خسرا موقعيهما الاجتماعيين، وانقلبت سفينة حياتهما عند سعيهما وراء المجد الكاذب، وكذلك سعادة البك، الذي عاش على أمجاد كاذبة، ومكانة سابقة، سعى مهاجراً إلى الغرب بغية إعادته، فما كان من الغرب إلا أن ألقى به إلى الهاوية**".

"في أقصوصة "**العاقر**" انقلاب لموازين الشخصيات، أم عزيز مع عزيز والعائلة. انقلبت مواقفهم تجاه "جميلة البشتاوي" عندما تأخر حملها، فتحولت معاملتهم لها إلى معاملة قاسية جافة بعد فلسفة هبطت على أم عزيز مفادها "**أن بنات الأكابر يجب أن لا يعملن عملاً على الأرض، سوى الأكل والشرب والتأنق في اللباس، وإلا فماذا يقول عنها العالم**".

وعندما حملت جميلة، انقلبت الموازين مجدداً، وعادت الفلسفة السابقة فهبطت فجأة على أم عزيز، كما عاد عزيز اليائس إلى عهد سابق، لكن المتحول الوحيد إلى الموقع السالب، والذي لم يشأ العودة إلى حيث أراد الزوج وأمه، هي جميلة إذ رفضت العودة إلى الرياء الاجتماعي، والغش والكذب؛ فقررت الانتحار، ونفذّته في نقطة زمنية ومكانية غالية على قلبها، فاختارت أن تضع نقطتها السوداء تلك في ذكرى زواجهما، وفي المكان الذي كانا يلتقيان فيه.

إن انتحار "جميلة" هو نقطة سوداء على جبين مجتمعها الجاهل، انتحرت، لأن حملها لم يكن من عزيز زوجها، وأوضحت من رسالتها، أنها أقدمت على فعلتها تلك، لتثبت لعزيز ولوالدته ولمجتمع "يربوب" أنها لم تكن عاقراً".

هذا باختصار شديد عن الكبير ميخائيل نعيمة، ولنا وقفة أخرى، مع أعماله الإبداعية.

ونحن في اتحاد الكتاب، إذ نقدم كتاب الجيب مع مجلة (الموقف الأدبي) مجموعة (كان ما كان) لنّذكر بفضيلة القصة والقص، في بواكيرها، فهذه المجموعة كتبت في مستهل القرن الماضي، ولنذكّر أيضاً بالموضوعات الغنية اجتماعياً وفنياً..

المراجع:

مؤلفات ميخائيل نعيمة:

1 ـ الآباء والبنون.

2 ـ الغربال.

3 ـ همس الجفون.

4 ـ البيادر.

5 ـ أيوب.

6 ـ أبعد من موسكو ومن واشنطن.

7 ـ سبعون.

8 ـ الدكتور علي حجازي: القصة القصيرة في لبنان، تطورها وأعلامها.

ساعَة الكوكُو

أثمن الهبات هبةٌ تجهل واهبها

في حقيبتي رسالة هي عندي أنفس ما وهبنيه الناس حتى اليوم. تسلمتها في أوائل أيار سنة 1922 فتلوتها ولم أقع فيها على أقلّ أثر استدلّ منه على مرسلها ومحل إقامته. وجل ما اهتديت إليه من مضمونها وطابع البريد على غلافها أنّها مرسلة من قرية لبنانيّة صغيرة.

احتفظت بهذه الرسالة منذ تسلمتها حتى اليوم أملاً بأن يعود كاتبها ويذكرني ولو بسطر أو بسطرين، ويطلعني على اسمه وعنوانه فأشكر له في الأقلّ تحفته واستأذنه بعرضها على الناس إذ حرام أن تُدفن بين أوراق قديمة مهملة.

إلاّ أنه ما كان ليحقّق أملي. لذاك آخذ المسؤولية على نفسي، وأنشر اليوم هذه الرسالة الغريبة، حتى إذا ما كان كاتبها حاملاً للآن قسطه من هموم هذه الحياة، واتفق أن وقعت عيناه على هذه السطور فليقرأ بينها شكر قلب سيظلّ يذكره بالخير حتى آخر نبضة. وإن تكن روحه قد اجتازت الهوة فلها من روحي ألف رحمة ورحمة.

وإلى القارئ الرسالة، بعد حذف التحيات والسلامات وكلّ الخصوصيات:

"... مات أمس في هذه القرية رجل عظيم. وقد دفنّاه اليوم. وها أنا أكتب إليك وعلى يدي آثار من تراب الرمس.

"دفنّاه نحن رجال القرية ونسوتها، من أكبرنا إلى أصغرنا، ما خلا كاهنينا ـ كاهن الكنيسة الشرقية وكاهن الكنيسة الغربيّة. لأن كلاً منهما ادعاه من رعيته وليس منهما من تمكن من إثبات دعواه، إذ كان الفقيد يتردّد في حياته على الكنيستين بالسواء. لكنّه لم يجاهر قطّ بمذهب، ولا تناول الأسرار الإلهيّة في كنيسة من الكنيستين. فحسماً للخلاف دفنّاه لا كهنة، ولا مباخر، ولا شموع. وذاك أوّل مأتم شهدته في حياتي من نوعه.

"إن أنا قلتُ إن كلّ حفنة من تراب الرمس الذي ساعدت اليوم في حفره وردمته بيدي مع الرادمين عادت إليه مروّاة بالدموع ـ دموعي ودموع كلّ من حضر ـ إن قلت لك ذلك فصدقني لأنني لست كاتباً ولا شاعراً.

"إن العظمة التي ترونها أنتم معشر الكتّاب والشعراء، إن في أنفسكم أو في الناس، أكثر ما تكون قرقعة عظام في الدست. أمّا القدر الملآنة غذاء طيّباً، والتي تغلي على مهلها، فلا تسمعونها ولا ترون ما فيها. فمن صنّف كتاباً رائجاً أو نظم ديواناً رائجاً ـ عظيم. ومن اخترع ملهاة جديدة للبشر ـ عظيم. ومن صوّر صورة جميلة ـ عظيم. ومن ربح معركة حربيّة ـ عظيم. هذه العظمة ترونها وتسمعونها لأنّها قرقاعة. أمّا العظيمة الساكتة فأذانكم دونها صمّاء، وأبصاركم عنها كليلة وعمياء. وماذا عساكم تسمعون إذا كنتم لا

تسمعون صوت العظمة الساكتة؟ وماذا عساكم تبصرون إذا كنتم لا تبصرون وجه العظمة المتسترة؟

"إن من دفنّاه اليوم لم يصنّف كتاباً قط، ولا نظم قصيدة، ولا نحت تمثالاً، ولا اكتشف علاجاً، ولا اخترع مهلكة جديدة للبشر. وكان مع ذلك عظيماً أمس، وهو عظيم اليوم، وسيظلّ عظيماً غداً.

"ولماذا؟ لأنّه أضاع نفسه ثم وجدها. لأنه تعارك مع ساعة الكوكو فانتصر عليها. وحتى اليوم لم أسمع بواحد منكم تغلّب على ساعة الكوكو. ومتى أضعت نفسك يا سيدي ثمّ وجدتها، متى انتصرت على ساعة الكوكو أكون أوّل الشاهدين بعظمتك.

"جاءنا هذا الرجل منذ سنتين وهو لا يعرف القرية ولا أحداً فيها، ولا أحد في القرية يعرفه. وليس من يعرفه في القرية حتى اليوم إلاّ أنا. فقد باح ليس بسرّه قبل موته. وها أنا أبوح لك به، ولست جاهلاً إلى حدّ أن أسألك حفظ السر. لأني أعرفكم معشر الكتّاب والشعراء لا تحفظون سرّاً ولا ترعون عهداً. فكلّكم نمّام فضّاح. إذا لم يفصح السر بلسانه فضحه بقلمه، وإن لم يكن له ما يفضح فضح أسرار نفسه.

"أنت لبناني وتعرف أخلاق القرويّين في لبنان، لاسيّما في قرية صغيرة كهذه. إذا طرقهم غريب لا يوصدون أبوابهم في وجهه. ولا يطعمونه اللقمة بيمينهم ويسارهم ممدودة إلى كيسه. لكنّهم يكثرون السؤال شأن القرويين في كلّ مكان إذا حل بهم غريب: مَن؟ ومن أين؟ ولماذا؟ ونحوها من الأسئلة.

"ولم تكن إلاّ عشيّة وضحاها حتى شاع في القرية أن الزائر الغريب رجل أمريكي اسمه "طمسن". وأنّه ولد في لبنان وقضى فيه صباه وقسماً من شبابه، ثمّ عاد إلى بلاده وراء البحار حيث اشتغل عشرين عاماً فانتهكت قواه. وذكر لبنان فأحبّ أن يرجع إليه ليستردّ همته ونشاطه. وقد اختار قريتنا لطيب مناخها وجمال موقعها.

"رأيت الرجل في اليوم الثاني بعد قدومه إلى القرية. فوجدت في وداعة عينيه جاذباً، وفي هيبة طلعته دافعاً. كأنَّ عينيه كانتا تقولان لي: ادنُ مني يا أخي. أمّا هيبته فكانت تقول: لا تلمسني! فدنوت منه ولم ألمسه، وهكذا بقيت قريباً منه بعيداً عنه، إلى أن كان يوم لمسته فيه، بل عانقته حتى كأنني وإيّاه واحد. ذاك يوم فتح لي صدره وقال: ها أنذا!

"ألست ترى أن الناس يسيرون في الحياة أسراراً؟ فالإنسان يقترب من الإنسان بقدر ما يقترب المتشابهان في الظاهر: هذا سرّ وذاك سرّ. وهنا تنتهي القرابة ويبتعد الإنسان عن الإنسان بقدر ما يجهد كلّ في كتمان سرّه. أمّا ساعة يكشف الإنسان للإنسان سرّه ـ ساعتئذ تنصرم فواصل الزمان، وتتدانى مسافات المكان، ويلتقي الأخ أخاه. وسيأتيك الحديث.

"هل فكّرت في حياتك أن الفطرة حقيقة صافية، والمدنيّة رياء موشى؟ اعتبر ذلك في أن أبناء الفطرة يسعون أبداً إلى تطبيق الاسم على المسمى. فحيثما شعروا بتنافر بين الاثنين لجأوا إلى الألقاب والكنيات أو ما يدعونه الأسماء "المُلَبَّقة".

"مستر طمسن. مستر.. وطمسن.. كلمتان لا تؤديان معنى قطّ لأبناء قرية لبنانية. وعلاوة على ذلك لا "تدوران" على ألسنتهم. ولا تعبّران عن شيء من الخلال التي اكتشفوها في الرجل. لذلك كان من حسن ذوقهم وصدق فطرتهم أن "لبقوا" لمستر طمسن كنية "بو معروف".

"بو معروف، وهل تدري ما يعنيه القروي اللبناني بكلمة: "المعروف"؟ خذ كلّ فضيلة عرفها الناس من آدم حتى اليوم: المحبّة، الرفق، الشهامة، الصدق، العدل، المسالمة، اللطف، الدعة، نكران الذات. خذ هذه الفضائل وامزجها يكن لك من مزيجها "المعروف". وإذا أجمعت كلمة أهل قرية لبنانيّة على تلقيب رجل بأبي المعروف، فاعتبر ذلك أصدق شاهد على أن الرجل فلتة من فلتات الزمان.

"ما هي إلا أسابيع قليلة حتى أصبح بو معروف عشيق صغارنا، وحبيب كبارنا، ورفيقنا في كلّ أفراحنا وأتراحنا، وشريكنا في كلّ أعمالنا، وقاضينا في كلّ مشاكلنا، ومرجعنا في كلّ متعبة وشدّة. وقلّما كان يمرّ بنا يوم لا نسمع فيه بمأثرة جديدة له يصنعها في السرّ فتخبر عنها محبّتنا في العلانية. ولو جئتنا لأسرد لك مآثره لما استطعت. غير أني أذكر منها واحدة، وهي أنه منذ حلّ بو معروف هذه القرية لم يهاجر من أبنائها ولا واحد. وكنّا قبل ذلك لا نستقبل مهاجراً عائداً حتى نودّع عشرة نازحين. فتأمّل!

"أسألك أن تتأمّل لأنك لو تأمّلت لرأيت في ذلك عجيبة.

"وكيف صنع بو معروف هذه العجيبة؟ بطريقة هي البساطة بعينها. والبساطة هي أجمل ما في الكون وأندر ما في الناس. فهي

عجيبة. لقد جعلنا بو معروف نحبّ قريتنا، نحبّ تربتها، وماءها، وهواءها، وصخورها، ووعورها، وسهولها، وأوديتها، وجبالها، لأنه هو أحبها بكلّ قواه. فانتقلت محبّته إلينا بالعدوى. جعلنا بو معروف نشعر ونفهم ونؤمن أن لا حياة لنا بدون الأرض، وأن الأرض لا تعطف إلاّ على من يعطف عليها. فإذا لم تعطف علينا أرضنا فليس في المشارق والمغارب بقعة غيرها تعطف علينا. إذ إن من لا يعرف كيف يستعطف أرضه لا يعرف كيف يستعطف سواها. ومن فقد عطف الأرض فقد الحياة، فكان شريداً طريداً أينما حل وإن جمع من المال جبالاً.

"وأذكر من أقوال بو معروف الشيء الكثير، وليتني أذكره كما فاه به. وإليك بعضه مشوّهاً بلغتي العوجاء:

"من الأرض لباسك، ومن الأرض غذاؤك، ومن الأرض مأواك. فما أجهلك تحتال على الحياة لتحصيل على لباسك وغذائك ومأواك من غير أن تلمس الأرض!".

"لا بدّ للإنسان في تحصيل رزقه من شريك، فطوبى لمن اتخذ الأرض شريكه لأنه ينام ملء أجفانه!".

"التجارة حيلة لصيد المال، والمال حيلة لسرقة أثمار الأرض من شركاء الأرض، لكنّها حيلة تقتل محتاليها".

"إذا دفنت في الأرض حبّة فأعطتك عشر حبّات فأين هو الرجل الذي يجسر أن يدلّ عليك بإصبعه قائلاً: "هو ذا سارق"؟

أمّا إذا أنفقت فلساً فعاد إليك فلسين فكثيرة هي الأصابع التي تشير إليك، وإن لم ترها. وكثيرة هي الألسنة التي تقول: هو ذا سارق،

وإن لم تسمعها. غير أن الحياة ترى تلك الأصابع وتسمع تلك الألسنة. والحياة تذكر ما ترى وتحفظ ما تسمع".

"إنّ في التراب لعطراً لا تعرفه حوانيت العطارين".

"الأرض هي الفاتحة في مصحف الوجود. مَن قرأها كان في غنى عن كل ما حوته الكتب".

"السعيد من سعد حيث كان. والتاعس من راح يبحث عن السعادة في مكان آخر".

"أحبّ إليّ روح نظيفة في جسم قذر من روح قذرة في دسم نظيف. وأحب إليّ من الاثنين روح نظيفة في جسم نظيف. الأرض روح طاهر في جسم طاهر، فلاصقوها بأرواحكم وأجسامكم إن شئتم أن تكونوا من الطاهرين".

"الناس عبيد الناس. أنا عبد من في يده قضاء حاجتي. ومن في يده قضاء حاجتي عبد من في يده قضاء حاجته. فعبدهم سيّد و سيدهم عبد. وهل أظلم من عبد إذا ساد أو أحقر من سيد إذا استعبد! أما الذين قضاء حاجتهم في حوزة الأرض فهؤلاء أحرار لأن الأرض لا تُساد ولا تَستعبد، فهي ميزان العدل الإلهي".

"الأرض لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة والقمحة والزوانة، لأن كلّ ما في جوفها طاهر. أمّا الناس فيستحون من أشواكهم وزوانهم، فيحاولون بكلّ قدرتهم خنقها. لذاك تخنقهم. تعلّموا الصدق من الأرض".

"رأيت رجلاً ينخل التراب فيحتفظ منه بذرات صفراء براقة ويطرح ما بقي. ورأيت آخر يبذر فيما طرح الأول من التراب حبّات من الحنطة. وبعد عام كانت مجاعة في الأرض فرأيت الرجل الأوّل راكعاً أمام الثاني وفي يده نقود صفراء وسمعته يقول: "ألا بعتني صاعاً من الحنطة ولو بعشرين ديناراً؟" وسمعت صاحب الحنطة يقول: "لقد رضيت بغلّتي من التراب فكن راضياً بغلّتك".

"ليتني دوّنت كلّ كلمة سمعتها من بو معروف، فكلماته كانت مواعظ. وكان ينطق بها دون ما تصنّع أو تكلّف، ليس من على المنابر ولا في المجالس الحافلة، بل في الحقول والكروم، ويده قابضة على المحراث أو المقصل أو الرفش أو المعول، لأنّه، كما قلت لك، صار منّا وفينا. يعمل أعمالنا، ويلبس لباسنا، ويأكل ما نأكل، ويشرب ما نشرب. وكم كنت أحبّ منظره في العباءة و"الشروال" و"اللبادة"! كلّما صوّرته أمامي فاضت عيناي بالدموع. وها أنا أبكي الآن وقد سقطت دمعة على هذه الورقة. فيا لضياعها، لأنّك لن تراها، ولن تشعر بها، ولن تفهم المحبة التي فيها. كما أني أخشى أنّك لن تفهم ما سردته لك من أقوال بو معروف لأنّك لا تعرف دموع المحبّة. ولا تفهم لغة الأرض. وبو معروف كان يفهم لغة الأرض ويعرف دموع المحبّة.

***

"بو معروف، بو معروف! لقد مات بو معروف ودفنّاه، لكنّه ما برح حيّاً في حقولنا وكرومنا وبيوتنا وقلوبنا. كلّها يحدّث عنه.

وأفصحها لساناً صخرة شاهقة صمّاء ندعوها في هذه الجهات "عمود السحاب". فقد كنّا نتسلّقها معاً أنا وبو معروف ونستلقي على منبسط صغير في أعلاها، ومن هناك نرسل بصرينا في الفضاء الأزرق نفتح صدرينا للنسيم، أو نتمدّد على بطنينا فنطلّ على واد عميق فيه غابات من الحور والبلوط والسنديان وجدول ينحدر من صدر الجبل فيكرّ مهللاً بين الصخور والأشجار.

"وكنّا متمدّدين على ظهر تلك الصخرة منذ أسبوعين، ساندين رأسينا بأيدينا، ومرفقانا على الصخرة. وبصرانا متغلغلان في الوادي، وأفكارنا تائهة مع أنفاس الربيع. وكان النهار أحداً وقد تجاوز عصره. ومن الوادي قد ارتفعت زقزقة الألوف من الخلائق المجنّحة. ومرّ بنا غرابان ونعقا، فالتفت إليّ بو معروف وقال:

" ـ ما أجمل الغراب يتكلّم لغة الغراب ولا يحسد العندليب على صوته: وما أجمل العندليب يتكلّم لغة العندليب ولا يحسد الغراب على قوته! والغراب والعندليب ولدا الطبيعة وهي تحبّهما بالسواء. ليس الأمر كذلك بين الناس. فكم من غراب بشري يشقى لأن ليس له صوت العندليب! وكم من عندليب بشري يتعس لأن ليس له قوة الغراب!

"وسكت فعدنا إلى السكوت، وظللنا فترة طويلة ساكتين.

"ونحن كذلك، وإذا برفيقي يستوي فجأة جالساً ويشدّ بكفيه على صدغيه وقد أغمض عينيه كأن به صرعاً قويّاً. فنظرت إلى وجهه وإذا به كالزعفران. فدنوت منه ويداي ترتجفان رعبة وركبتاي

تصطكان، وقبل أن أفتح فمي أشار لي بيده أن أعود إلى مكاني وقال:

" ـ لا بأس، لا بأس، مسألة عرضيّة!

"فعندنا إلى ما كنّا فيه، وعاد إلى وجه بو معروف لونه وابتسامته، غير أني ما كدت أنسى غرابة ما حدث حتى انتفض جليسي ثانية وهبَّ واقفاً وشدّني بعنف من يدي قائلاً: "لنذهب، لنذهب من هنا!" فامتثلت كالولد الصغير، إلاّ أني وقفت هنيهة كالمشلول. فرقّ بو معروف لحالتي، والتفت إليّ وفي عينيه كآبة وحنان وسألني بلطف:

" ـ أوَما سمعت؟ أوَما سمعت؟

"فأخذتني الدهشة، حتى خيّل إليّ أن رفيقي أصيب بمسّ في عقله، لأني ما ذكرت أن سمعت صوتاً غريباً، أو رأيت شيئاً خارقاً.

" ـ اسمع، اسمع: ـ قال لي ذلك بو معروف واضعاً كفه على كتفي، فتكهربت للحال بانفعالاته النفسيّة ووقفت أصغي إلى كل حركة وصوت علّني أسمع ما يفسر لي تصرف رفيقي الغريب. فلم أسمع سوى جلبة الطيور وحفيف الأوراق وخرير الماء في الوادي.

" ـ اسمع، اسمع! أسمعت الآن؟ أسمعت؟" وهزني بو معروف من كتفي هزّة شعرت معها كأن "عمود السحاب" اهتزّ تحت قدمي. ووقفت مبهوتاً أحاول أن أذكر آخر صوت طرق مسمعي فذكرته. غير أني لم أجد فيه ولا شبه تفسير لذلك المشهد المحيّر، فقلت:

" ـ نعم سمعت!

" قال: وما سمعت؟

"قلت: كوكو. كوكو! وهو صوت طائر لا يندر أن يزور هذه الأنحاء في الربيع ونحن نسميه "طير الكوكو".

" في تلك اللحظة تبدّل وجه بو معروف عشرين شكلاً، وتوالت هذه الأشكال أمام عينيّ بسرعة البرق حتى ظننتني بحضرة جمهور من البشر تلعب بهم كل أصناف العواطف، ولكنّها، كما قلت، لم تكن إلاّ لحظة. فما دريت إلاّ وبو معروف عاد وتمدّد على الصخرة وجذبني بلطف لأعود وأتمدّد بجانبه كالسابق. ففعلت وأنا كالمسحور لا أدري ماذا أقول ولا ماذا أفكّر. إلاّ أنّ بو معروف الذي سحرني ما عتم أن حلني من سحره عندما التفت إليّ بعينيه الوديعتين وفتح شفتيه القرمزيتين وكلّمني بهدوء هكذا:

"- أعرني سمعك فأقص عليك حكاية الكوكو".

***

"كان ما كان، كان في قديم الزمان رجل لبناني وامرأته، وكان الرجل من حارثي الأرض الذين يأكلون خبزهم بعرق جبينهم والذين يقول فيهم اللبنانيون "فلاح مكتفي، سلطان مخفي". وكان له ولامرأته ولد اسمه خطار يحلفان بالله مرّة وبه عشرين مرّة. وكان الثلاثة قانعين شاكرين سعيدين بقدر ما يسمح الله لثلاثة من البشر أن يكونوا سعيدين.

وكان لأبي خطار وأم خطار جار أرمل يحرث الأرض كذلك، وله ابنة اسمها زمرد، يحلف بالله مرَّة وبها عشرين مرّة. وهذا الجار كان من حارثي الأرض كذلك وكان سلطاناً مخفيّاً.

ومن غير أن يتبادل أبو خطار وأم خطار مع جارهما كلمة واحدة بشأن ولديهم، كان معروفاً عندهم وعند كلّ أهل القرية أن خطاراً لزمرد وزمرداً ل خطار، مثلما كان معروفاً عند خطار وزمرد، إذ لم يكن في وسع أحدهما أن يصور نفسه بعيداً عن رفيق صباه وفتوته، وقد مزجت الأيّام روحيهما بأساليبهما السحريّة التي تفوق كلّ إدراك.

يقولون إن الحبّ أعمى. وذاك خطأ. بل الحبّ مبصر، ولكنه ينظر بعين الجمال فيرى كلّ شيء جميلاً. لذاك كان الحبّ خلاصة الحياة. فمتى أحبّ الناسُ الناسَ تقلّصت عنهم كلّ ظلال الشناعة فرأوا كل ما فيهم جميلاً. ومتى رأى الناس كلّ ما فيهم جميلاً عرفوا الحبّ. ومتى عرفوا الحبّ عرفوا الحياة. ولأن خطاراً وزمرداً عرفا الحبّ ما كان أحدهما يرى في رفيقه غير الكمال.

وكانت سنة 1900 وكان صوم الفصح، فقرّ رأي أبي خطار وأم خطار وجارهما أن يفرحوا بخطار وزمرد بعد الفصح بقليل، وراحوا يعدّ ون العدد للعرس.

وحدث في هذه الأثناء أن عاد من أمريكا إلى القرية واحد من أبنائها اسمه فارس خيبر وله من العمر نحو الأربعين. فأقبل أهل القرية للسلام عليه وللاستعلام عن أبنائهم الغائبين. وعادوا من عنده معجبين بزيه الإفرنجي وبأحاديثه عن عجائب أمريكا وبالتحف التي جاء بها من تلك البلاد الغريبة، ومنها ساعة كوكو.

هل رأيت في حياتك ساعة كوكو ؟ هي من نوع الساعات الدقاقة، لكنّها تعلن الوقت لا بقرع الناقوس بل بلسان طائر اصطناعي في جوفها. فمتى كانت الساعة الثانية عشرة ـ مثلاً ـ انفتحت في أعلاها طاقة وخرج منها ذلك الطائر وردد "كوكو" اثنتي عشرة مرة، ثمّ عاد إلى جوف الساعة وانقفلت الطاقة خلفه.

وعاد أبو خطار وامرأته وابنه وأبو زمر وابنته من عند فارس خيبر وكلّ حديثهم في الطريق عن ساعة الكوكو. وكانت زمرد أكثرهم إعجاباً بها حتى إنّها تمنّت لو سمحت لها اللياقة أن تبقى في بيت فارس خيبر ساعات متوالية لترى ذلك الطائر الغريب يخرج من طاقته العجيبة ويهتف: كوكو!.

مرّ أسبوع لم يكن فيه من حديث للقوم إلاّ ساعة الكوكو وصاحبها. فمن معجب بطلاقة لسانه في الإنكليزية، ومن معجب بعصاه التي هي عصاً ومظلّة معاً، ومن معجب ـ بالكالوش ـ الذي كان يحتذيه كلّما أفلتت من السحاب ولو بضع قطرات من المطر. وإعجاب زمرد بساعته ما كان لينقص بل يزداد.

وقربَ وقت العرس فلغطت به القرية وتناست القادم حديثاً من وراء البحار. وكان ليلة العرس وكلّ شيء قد أُعد على آخر طراز، وأبو خطار وابنهما وجارهما في السماء السابعة من السعادة. إلاّ زمرد فقد كانت في سماء غير سمائهم، لأنهم طلبوها فلم يجدوها.

وبالاختصار هربت زمرد مع فارس خيبر، وقبل أن يفيق أهل العروس من هول فاجعتهم ويدركوا الدسيسة ويرسلوا إلى بيروت من

يبحث عن الهاربين، كان الهاربان على ظهر باخرة وجهتها مغرب الشمس.

بعد أسبوعين قضى أبو زمرد حسرة على ابنته وحرقة من هوانه وخيبته بين الناس. فكان أوّل ضحية من ضحايا ساعة الكوكو.

أمّا أبو خطار وأم خطار فتجلّدا على مصابهما، وساعدهما على التجلّد أن خطاراً لم يذرف دمعة، ولا عبرت بشفتيه لعنة، ولا انطلقت من صدره تنهدة. فقالا إن من ألهمه مثل هذا الصبر سيعطيه "نصيباً" يكون خيراً له من نصيبه الأوّل "فنحن بالتفكير والله بالتدبير".

وكان يوم خرج فيه خطار إلى الحقل ليحرث. وبينما هو يحرث وقف فجأة في منتصف الثلمة والتفت إلى نفسه وكلّ ما حواليه وجمد في مكانه ثمّ خاطب نفسه هكذا:

"حتى متى يا خطار، حتى متى؟ لقد دفنت في هذه التربة عشرين من سنيك، فماذا أنْبَتَتْ لك؟ ما الفرق بينك وبين هذه الصخور؟ هي صمّاء بكماء، وأنت أصمّ أبكم. ما الفرق بينك وبين هذه الثيران؟ هي تحرث الأرض لتأكل أعشابها، وأنت تحرث الأرض لتأكل بقولها وأثمارها! ما دمت على هذه الحصيرة يا خطار فحياتك لا طويلة ولا قصيرة.

علامَ تنهش قلبك الخيبة يا خطار، وفكرة الانتقام من فارس خيبر وزمرد تسلبك لذّة النوم والطعام؟ من أنت بين الناس وماذا تملك وماذا تعرف؟ أنت لا شيء ولا تملك شيئاً ولا تعرف شيئاً.

" لقد طرحتك زمرد من وراء ظهرها وآثرت ساعة الكوكو عليك. فبأي حقّ تلوم زمرداً يا خطار؟ من أنت من ساعة الكوكو وما فهمك من فهم مخترعها، وما بلادك من البلاد التي صنعت أجزاءها وركبت منها آلة غريبة عجيبة؟ وما أدراك أن ليس في تلك البلاد ما هو أعجب من ساعة الكوكو بكثير؟ فما أسعد تلك البلاد وساكنيها وما أشقاك في بلادك!

"عيب عليك يا خطار أن يسلبك قلبك رجل كفارس خيبر، وما كان فارس خيبر ليسلبك قلبك لو كان لك ماله وفهمه ومعرفته. وفارس خيبر قد خاض من أجلها البحار. فما الذي يربطك بهذه الصخور والوعور؟ أم أنت جبان؟ أم أنت ميت ولا تعرف أنك ميت؟ عيب عليك يا خطار أن تغلبك ساعة الكوكو!".

هكذا خاطب خطار نفسه، ولأوّل مرة في حياته رأى كلّ ما وقعت عليه عيناه شنيعاً وشائناً: ثيرانه ومحراثه، وأشجاره وكرومه، وصخوره. حتى أن التربة الطريئة التي كان ينشرح لأنفاسهما صدره، وترتاح قدماه إذ تغرقان فيها، بدت لعينيه قذى ونتانة، والثلمة التي ثلمها بمحراثه في الأرض بدت له قبراً يحفره لنفسه بيده. والصخور المنتشرة في عرض الحقل وطوله، والأشجار المتمايلة بينها، والعصافير المرنمة على الأشجار باتت كما لو كانت تنوح عليه أو تهزأ به. فرفع خطار يده عن محراثه وترك ثيرانه، وأدار ظهره إلى الحقل ووجه إلى القرية، وهناك أعلن لوالديه أنّه مزمع على السفر إلى أميركا وأن لا مرد لعزمه.

وكانت مناحة، وكان عويل، وكان أخذ وردّ لكن بلا جدوى.
وسافر خطار إلى أمريكا.

***

شقي خطار في بدء هجرته، وجرع من المرارة أكواباً، وعضّه الندم غير مرّة وابتز من مقلتيه أكثر من دمعة، وخيّم اليأس في روحه، ومشت في قلبه الخيبة. إلاّ أنّه ما كاد يستسلم لقنوطه مرّة إلاّ انتهره صوت داخلي قائلاً: عيب عليك يا خطار، شد حيلك واذكر ساعة الكوكو!

وشدّ خطار حيله وأدرك أنّه في بلاد مفتاحها الريال، وأن لا حياة فيها لمن لا مفتاح بيده، وأن من لا يقاتل من أجل ذلك المفتاح يظلّ خارجاً أو تدوسه أرجل المقاتلين. فراح خطار يقاتل بيديه ورجليه وأظفاره وأسنانه. ولم يبقَ له من همّ سوى جمع ثروة تفتح أمامه عجائب أمريكا وغرائبها، وتكشف له أسرارها، وترفعه إلى مستوى ساعة الكوكو.

وخدمه الحظّ بعد حين، فانفتح أمامه باب للكسب، وتفتحت بعد ذلك الباب أبواب لأن المال يجذب المال. وكان أوّل ما ابتاعه خطار من باكورة أرباحه ساعة كوكو، وإذْ ذاك تولّدت فيه عزيمة جديدة لأنّه شعر أنّه قد ربح أوّل معركة في ميدان جهاده الجديد. وفي لذّة الانتصار نشوة تدفع المنتصر إلى خوض معارك جديدة للفوز بانتصارات جديدة.

وراحت أيام، وجاءت الأيّام، وكانت المجزرة الكبرى فأفاق خطار وإذا به صاحب مغالق تجارية شاسعة، وثروة تربو على المليون، وليس ما يذكره بوالديه اللذين قضيا في أثناء الحرب وبما كان فيه وصار إليه سوى ساعة الكوكو المعلّقة على جدار من جدران منزله الفخم. بل إن ساعة الكوكو ما كانت تذكره بذلك إلاّ فيما ندر.

وانتقى خطار لنفسه ابنة سوريّة مولودة في أمريكا اسمها "أليس" واتخذها شريكة لحياته.

***

ليس كالمصائب منبهاً للإنسان. فكم من سعادة تأتينا في زي مصيبة، ومصيبة في زي سعادة!

أمّا مصيبة خطار فكانت زوجته "أليس" لأنّه ما طال أن أدرك أن بينها وبينه هاوية لا سبيل إلى مد جسر فوقها. وإن ما حسبه حباً منها نحوه لم يكن إلاّ تعطّشاً إلى ماله وما يبتاعه ماله من ملذات الدنيا. وما حسبه ميلاً منه إليها لم يكن سوى رغبة خفيّة في الهرب من وحدته ووحشته. وكم يهرب الإنسان من وحشة إلى أوحش منها كمن يهرب من الدلفة إلى تحت الميزاب.

في فضاء الحياة سبل شتى، فلكلّ إنسان سبيل، ولكلّ أمة سبيل. حتى لكل قارة سبيل. وهذه السبل تلقي وتفترق في شبكة لا تدرك أطرافها. ولعلّ أغرب نقطة في تلك الشبكة هي النقطة التي يلتقي عندها سبيلُ الشرق سبيلَ الغرب، لأن الشرق يسير إلى محجّة الحياة ومركبته قلبه، وجياده عواطفه وأفكاره، وأعنته إيمانه

وتقاليده المتّصلة بالآزال، بينما الغرب يسير في مركبة روحها البخار أو الكهرباء، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ. وأعنّتها ادّعاؤه واعتداده بنفسه، وكلّها من مبتدعات فكره. فيلتفت الغرب إلى الشرق ويحييه هازئاً: مرحباً يا جار! أراك تجدّ وتجدّ وتبقى مكانك. ويمضي في سبيله فخوراً بمركبته ظاناً أنّه سيسبق الشرق إلى المحجّة، لأن مركبة الشرق محجوبة عن عينيه.

وينظر الشرق إلى الغرب فيرى عظمة مركبته ويسمع حشرجتها وطقطقتها، فتبهره حركاتها، وتسحره سرعتها، فيقول في نفسه: المجد لك يا جار، المجد لك يا جار! أين مركبتي من مركبتك؟ ألا أشفقت عليّ وأذنت لي أن أتعلّق بدواليبها.

كذا يقول الشرق عندما يلتقي الغرب، فيطرح مركبته، ويبيع روحه، ليحصل على مركبة كمركبة جاره.

كذا قال خطار في نفسه يوم أدار ظهره إلى ثيرانه وحقله، ووجهه إلى البحر. فاصطنع له مركبة شدّها بمركبة الغرب، وراح يطوي في ساعة مسافات ما كان ليطويها في سنة. فأسكرته السرعة ولم تبقِ له من الوقت فرصة ليلتفت إلى ورائه أو إلى يمينه أو يساره، أو ليسأل نفسه إلى أين هو سائر. لكنّه عندما اصطدمت مركبته بأوّل عثرة في سبيلها ـ عثرة الشقاء البيتي ـ وجد خطار نفسه كالمحموم وقد غمسته في ماء ببرودة الثلج.

بدأت صحوة خطار بعد زواجه بأسبوعين، ومن الغريب أن فاتحة تلك الصحوة كانت فاتحة سكرته أيضاً ـ ساعة الكوكو. وذاك أن "أليس" طلبت إليه يوماً أن ينزل تلك الساعة عن الجدار ويطرحها

خارجاً لأنها "آلة تنك" قديمة ومنظرها يشوّه جمال القاعة، وأن يأتيها بساعة من الطراز الجديد. وإذ لم يجبها خطار إلى طلبها انهالت عليه بوابل من التقريع قائلة: إنّه من "الطقم" القديم، وإنّه فلاح بأذواقه ومداركه. وإنّه لا يعرف في الدنيا غير تجارته، ولا يفهم لغة إلا لغة الريال. وإنّها تخجل به أمام رفاقها ورفيقاتها. وانتهت بأن لعنت اليوم الذي ربطت فيه حياتها بحياته.

وتلت تلك الصدمة صدمات. فخاطب خطار نفسه قائلاً: "ويحك يا خطار، ما الذي فعلته بنفسك؟ لقد شددت مركبتك بدواليب هذه المركبة عشرين عاماً فانتهت حيث ابتدأت ـ بساعة الكوكو ـ بل قد رجعت القهقرى. فمن أنت اليوم؟ وماذا تعرف وماذا تملك؟

"لقد كنت رجلاً بين الرجال، لك زند قوي مفتول، وصدر عريض مكين، وقلب شجاع سليم. وكنت سيّداً في بيتك وفي حقلك وفي كرمك. وكنت محبوباً من والديك، مكرماً من أهل قريتك. أمّا اليوم فمن أنت؟ سجين معلق بدواليب مركبة لا تهدأ طرفة عين، تكرّ وتكرّ وتكرّ. والله يدري إلى أين. إذا أنت قطعت رباطك منها وقعت مهشماً على الطريق، وإذا بقيت معلقاً بها رأيت روحك بعينيك تتسلّل منك وتسحق رويداً رويداً تحت الدواليب. لقد شئت أن تقهر ساعة الكوكو فقهرتك، وأن تملكها فملكتك. لقد غزوتها في عقر دارها فاستقبلتك بالترحاب لتجعلك لولباً من لوالبها. بل أنت أحقر من لولب، وأحقر من مسمار في هذه الآلة الجهنمية. ويحك يا خطار، فقد كنت كلّ هذه السنين كالهرّ يلحس المبرد، فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً أنّه دمه.

"وماذا تعرف يا خطار؟ تعرف لغة جديدة، وبلاداً جديدة، وأزياء جديدة. فما كان أغناك عن معرفة ليست معرفة، لأنّك يوم كنت جاهلاً كنت تعرف أنّك جاهل، أمّا اليوم فتجهل أنّك لا تعرف.

"وماذا تملك يا خطار؟ كان زمان وكان لك ثيران وأغنام وحقول وكروم وبيت كان بحق بيتك. أمّا اليوم... في بابل الجديدة بناية هائلة، وفي تلك البناية غرف عديدة، وفي بعض تلك الغرف رفوف، وعلى تلك الرفوف منسوجات غريبة لا تدفع الحرّ والقرّ عن مخلوق. وتلك المنسوجات هي ملكك، ولكنّك لن ترتق بها خروق فؤادك، ولن تحوك منها أحلاماً جديدة، ولن تكفن بها أفكارك السود.

"وفي مصرف من مصارف بابل الجديدة خزانات من فولاذ. وفي إحدى تلك الخزانات أوراق وسندات ورهون مالية. هي ملكك كذلك. لكنّك لن تبتاع بها نعاساً لأجفانك، ولا صفاء لفكرك، ولا حريّة لروحك، ولن تستعيد بها والديك ولا زمرداً!...".

ومرّ أمامه خيال زمرد، وللحال انتصب بجانبه خيال أليس، فراح خطار يقابل بينهما عن غير قصد منه: "وما كان أجملك يا زمرد وأحلاك! ما كان أنقى بشرتك وأنعمها! والدم القاني الصاعد من قلبك البتول إلى وجهك الطهور ما كان أزكاه واصفاه! وعيناك اللوزيتان ما كان أودعهما وأقدسهما! وقبلاتك، آه قبلاتك كم كان فيها من البلسم والسلام!

"ما كنت تلبسين الحرير ولا كنت اللآلئ تثقل عنقك. ولا كنت تنامين على سرير ناعم. إلا أنك في البيت كنت ملاكاً حارساً، وفي الحقل بتولاً مولّدة مع الأرض البتول المولّدة، وكنت راضية بالحياة،

والحياة راضية بك. ما عرف قلبك الخيانة قطّ. كلا، فأنت لم تخوني عهودي، بل انخدعت بساعة الكوكو، فلا لوم عليك لأنّك ابنة حواء، وحواء انخدعت بجمال الثمرة المحرّمة. ولا لوم عليّ، فأنا ابن آدم، وآدم انخدع بانخداع رفيقته. أين أنت اليوم؟ وهل أنت راضية بالحياة والحياة راضية عنك؟

"وأليس. ها هي بزنديها العاريين، وصدرها المكشوف، وشعرها المجزوز، وشفتيها المحمرّتين، وخديها المطليين بالمساحيق، وأهدابها المسوّدة، وعينيها الجائعتين إلى المشاهد المهيجة، ويديها الناعمتين المرصعتين بالجواهر، وصدرها الخاوي، وخصرها الضامر، وساقيها المغلفتين بالحرير الخادع الشاف، ورجليها المشدودتين بأسيار لمّاعة، الواقفتين على الهواء. ها هي: حياة مقنّعة بالموت. وقناعها في اعتقادها أن في ذلك رمز حياتها، رمزاً تدعوه حريَّة ومعرفة وتمدناً ورقيّاً وجمالاً وسعادة. ها هي وقد انتقلت إليها عدوى الحركة الدائمة، تبحث عن سعادتها في الغبار الذي تثيره تلك الحركة - في المراقص، في الملاهي، في السيارات، في الحلي والحلل، وفي التنقل مع أزياء المعيشة الخارجية يوماً بعد يوم، وفي الثرثرة عن هذه الأمور، حتى كأنّها مجبولة من زبد الحياة ولا روح فيها إلاّ القوة الخفيّة التي تسير بها من لهوة إلى لهوة، ومن علفة إلى علفة، والتي تنزع عنها ثيابها ليلاً وتلبسها إيّاها نهاراً.

"أوَلست ملوماً في ذلك يا خطار؟ لقد أفلتت من يدك زمرد، فلست بعد مسؤولاً عنها. أمّا أليس فمعك، وقد يمكنك أن تنتشلها من الرغوة الغارقة فيها. وكيف تنتشلها وأنت غريق مثلها؟".

وتنهد خطار حرقةً على زمرد وعلى أليس وعلى نفسه. وحاول أن يفلت من أفكاره فلم يقدر لأنّها أخذت تساوره كلّ يوم بقوّة جديدة حتى رأى نفسه كالماشي على الحراب وبين الحراب وتحت الحراب. وعبثاً حاول أن يستعيد لذّة العمل في التجارة، أو لذّة الانفراد بنفسه، لأن تجارته تحوّلت في عينيه إلى أتون يحرق فيه حياته. وأرباحه إلى رماد تلك الحياة المحروقة. وأحسّ كأنّ نفسه انفصلت عنه فلم تبقَ النفس التي كان يأنس لمجالستها ومسامرتها. وأصبح يشعر في حضرتها بوحشة مظلمة فيسعى إلى الهرب منها. ومن الغريب أنّه في مثل هذه الاضطرابات النفسيّة كان يهرب إلى خادمة سورية تولّت إدارة بيته أيّام عزوبته فأبقاها عنده بعد زواجه واسمها سعدى وكانت طاعنة في السنّ، لكن قلبها كان طافحاً بالعطف وروحها كانت كتاباً مفتوحاً، لأنّ السنين التي قضتها في أمريكا لم تقض على شيء من جمال جوهرها الفطري ولا سلبتها شيئاً من بساطة القلب ولهفة الأنوثة التي يكسبها العمل سحراً جديداً. فكانت تغار وتحنّ على خطار كما لو كان ابنها. وعندما تناديه لا تناديه إلا " يا ابني". وكان خطار يعاملها كما لو كانت أمّه. وعندما تشتدّ عليه وطأة الوحدة كان يسرع إلى سعدى لينضوي تحت جناحيها كما يسرع الفرخ إلى أمّه ليختبئ من العاصفة تحت ريشها الدافئ الناعم.

وكانت ليلة سلّم فيها خطار لمشيئة زوجته، ورضي أن يتناول طعام العشاء معها في نزل من نُزل المدينة وأن يكون رفيق أليس الأمريكي ضيفهما. ورفيق أليس هذا كان من الشبّان الذين وضع

اللّه ﰲ أفـواههم ألْـسنةً طـويلة، وجعـل محـركها ﰲ بطـونهم بـدلاً مـن رؤوسـهم وقلوبهم. وما أكثر ما هم على سطح هذه الغبراء!

وفـيما الـثلاثة حـول المائـدة، وألـيس ورفـيقها يـتحدثان عـن رقـصة جديـدة، إذا بالخادمـة الـتي كانـت تأتـيهم بالطعـام تـتقدّم إلى خطـار وتناوله ورقة صغيرة مطويّة وتقول: "هذه من السيدة الواقفة بجانب ذلك الـشبّاك خلـف الـستار!..". وأشـارت إلى شـباك لا يـراه إلاّ مـن كـان إلى مائدة خطار.

فـتح خطـار الـورقة وقـرأ مـا فيها. فامتقع لونه ﰲ الحال، وقدحت عينا ألـيس شراراً واكفهرّ وجهها وعض رفيقها الأمريكي على شفته الـسفلى وقطـب حاجبيه وغمـز ألـيس غمـزة ذات معنـى كأنّه يقول لها: لقد انفضح السرّ، فهان الأمر وأصبح الطلاق قريباً.

غـير أن خطـاراً عـاد فامـتلك نفـسه. ونهـض وانطلـق إلى الـشباك حيث الـسيدة بانـتظاره، ومـا حدّثها قليلاً حتـى بـدت علـى وجهه أمائر الدهشة والحيرة، ثمّ مدّ يده وصافحها، ثمّ ناولها من جيبه بطاقة عليها اسمـه وعنوانه. ثـمّ صـافحها ثانية، وودعها باسماً وهـي تبتسم له. لكنّه مـا عـاد إلى حيث كـان حتـى وجد زوجته ورفيقها واقفين وقد ارتديا ثيابهما استعداداً للذهاب، فأدرك أن تصرفه قد أضرم نار ثورة.

عـاد الـثلاثة ﰲ الـسيارة إلى البـيت مـن غـير أن يفتح أحدهم فاه ﰲ الطـريق. لكـنّهم مـا دخلـوا البـيت حتـى تدفّـق مـن فـم ألـيس سـيل مـن الـشتيمة التقـريع والتأنيب: يـا للفـضيحة! يا للعار! أعَلى مرأى أناس من نخبة القـوم تـشنعني هـذا التـشنيع؟ إذا لم يكـن لـك بـدّ مـن خليلة أيها الخـائن أفـلا انتقيت لـك واحـدة أرفع مقاماً من خادمة ﰲ مطعم. وكلّ

شيء واضح كالصبح. وهل أكذب عيني؟ لا حديث لك معي بعد هذه الليلة ولن يرتفع فوق رأسينا سقف واحد بعد. إذا كان لك من حديث فليكن مع محام!..

وظلّت أليس تحوك على هذا المنوال ورفيقها الأمريكي "يصب على يدها" مردداً بلهجة من لحقت به إهانة فظيعة: الحق معها، الحق معها. فمن ذا يصبر على إهانة كهذه الإهانة؟ إنّني في حياتي كلها ما تلوثت بمثل هذه القذارة!

إلى أن قرع جرس الباب ودخلت المرأة التي حدثها خطار في المطعم وقد نزعت ثياب الشغل وارتدت ثياباً بسيطة تذيع الفقر والذل. فما لمحتها أليس حتى كاد صوتها يخترق السقف وأخذت الشتائم الجارحة تتساقط من بين شفتيها تساقط البرَد من السحاب في يوم معصف.

كلّ ذلك وخطار واقف كأنّه قُدّ من صخر. وسعدى التي هرولت لصراخ سيّدتها تنظر يميناً وشمالاً فلا تفهم شيئاً، فتغمض عينها وترسم علامة الصليب متمتمة: نجّنا يا الله. نجّنا يا الله!

والمرأة الغريبة جامدة كشبح من عالم آخر. وكأنّها بعد قليل من التفكير فيما سمعته ورأته أدركت أن لها علاقة بذلك المشهد.

فتقدّمت من أليس وأرادت أن تقول كلمة، فلم تعطها أليس فرصة بل صاحت بها: ابتعدي عني، لا تلمسيني! ودفعتها بعنف وأخذت بيد رفيقها الأمريكي. وبأقل من لمحة الطرف خرجت وإيّاه من البيت الذي ارتجّ بأطرافه عند قفلها للباب. وكان أن المرأة الغريبة حين دفعتها أليس تلك الدفعة العنيفة هوت على سعدى الواقفة وراءها،

فهبطت الاثنتان إلى الأرض وهتفت سعدى: "أي نجّنا يا..." وكان ذلك آخر ما نطق به لسان تلك المسكينة.

حينئذ دقت الساعة: كوكو، كوكو، اثنتي عشرة مرّة فأجفل خطار وفرك عينيه كمن أفاق من غيبوبة طويلة. ولأوّل وهلة لم يصدّق ما رآه. سعدى التي كانت له أكبر تعزية، سعدى التي كانت تمثل في عينيه سوريا القديمة، ابنة الفطرة والبداهة والبساطة غير المقنّعة، والعاطفة الوثّابة من أعمق أعماق القلب ـ سعدى مطروحة على الأرض بلا حراك.

وبجانب سعدى امرأة مذعورة، مضعضعة الأفكار والقوى، شريدة طريدة، فقيرة حقيرة. تلك المرأة كانت وردة فواحة في تربتها، فعنّ لها أن وراء البحار تربة أصلح من تربتها وأغنى، وها هي الآن في تربتها الجديدة لا لون ولا أريج، بل أشواك مسننة وأوراق ذاوية. ولو شاءت أن تعود إلى تربتها لما وجدت إلى ذلك سبيلاً. لأنّها أمٌ لخمسة بنين ولا معين لهم سواها، إذ أن زوجها لا يعرف من الشغل أكثر من رفع القدح إلى شفتيه ومن عدّ الأوراق على مائدة القمار.

وأليس؟ مزيج غريب، مزيج أبخس ما في الشرق من ولع بزخرف الحياة مع ما يطفو على وجه بحر الحياة الغربيّة المزمجر من رغوة وفقاقيع.

وهو ـ هو خطار مسعد ـ من هو ما شأنه من ذلك المشهد؟ ومرّت أمام خطار خيالات ماضية كما تمرّ البروق، متقطعة متكسرة ناشبة من طرف الأفق إلى طرفه، فرأى نفسه في الحقل ويده على محراثه. وأمامه ثوراه الجلودان الأمينان. وتحت رجليه تربة أرضه اللدنة السخيّة.

وفي صدره أنفاسها وأنفاس أعشابها وأزهارها. وفي أذنيه ترانيم العصافير المرفرفة على أفنان أشجارها.

ثمّ عاد فالتفت حواليه فرأى الموت عن يمينه والخيبة عن يساره، وسمع جلبة المدينة التي لا تنام، فخيّل إليه أن المدينة برج هائل قائم على ألوف الدواليب التي تكرّ بسرعة إبليسية، وأن تلك المركبة الجهنميّة تنحدر من علوّ جبل قمته في السحاب وأركانه في هوّة لا قرار لها. وأنّها تسير على صدره. ورأى الراكبين فيها يتناهشون ويتعاضضون مقهقهين، مولولين، متسابقين إلى حيث لا يدورن، جاهلين أنّهم سائرون إلى حيث تسير بهم المركبة لا إلى حيث يرغبون.

ورأى بين هؤلاء الملايين ألوفاً من أبناء بشرته وقد زجّت بهم الأوهام والمطامع بين الراكبين فداست بعضهم أرجل المتسابقين. وعلق الآخرون بدواليب المركبة فراحوا يكرون معها سكارى وحيارى ومولولين، يلتفتون إلى وراء ويودّون الإفلات والرجوع فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً. وفي أعلى البرج المنحدر من القمّة على ألوف من الدواليب رأى خطار ساعة هائلة. وفي أعلى الساعة طاقة يخرج منها بين الفترة والفترة طائر ميكانيكي كبير ويصرخ بأبناء البرج: "كوكو! كوكو!" فيخرّون على رُكبهم ساجدين ويتهامسون فيما بينهم قائلين: "الساعة كيت وكيت...".

وانحنى خطار فوق سعدى والتفت إلى المرأة الواقفة بجانبها، وبصوت تخنقه العبرات قال: "زمرد! ساعديني..." وحمل الاثنان الجثة إلى غرفة محاذية".

***

هنا وقف محدثي وتنهّد طويلاً ثمّ استوى جالساً وقال:

ـ واليوم ها أنذا يا أخي أقصّ عليه حكاية ساعة الكوكو.
فصدّقها لأن من قصّها عليك هو خطار نفسه !

"1925"

سَنتها الجَديدة

قرية يربوب مشهورة بأمور كثيرة. كلّ من حفظ آية داود النبي أن الخمر تفرح قلب الإنسان يخبرك بجودة نبيذها وعرقها. وكلّ صاحب معمل للحرير في لبنان ينبئك بطيبة الشرانق التي يربيها أهل تلك القرية. وإذا شاء فلاح أن يشتري بقرة غزيرة الدر أو ثوراً قوي العضل لا يتردد أن يوجه أوّل خطاه نحوها مؤمناً من كل قلبه أنّه سيجد فيها ما تطمح إليه نفسه. وكذلك الشاب الذي اجتاز مرحلة من العمر وأدرك أن الحياة لا تفتح جراب ملذاتها ولا تصب نعمها على العُزّاب في هذه الدنيا وقرّر في عقله أن يضمّ بقيّة سنيه إلى سني إحدى بنات جدّته حواء، ينهض مع الفجر قبل جيرانه وأهل قريته ويتخذ نجمة الصبح دليلاً إلى تلك القرية عينها. يقضي هناك ليلة أو نهاراً ولا يعود ـ إلا نادراً ـ سوى من بعد أن يودع فؤاده عند من ستصبح "أمَته" عمّا قريب.

ولكن النبيذ والعرق والشرانق والبقر والعرائس ليست الأسباب الوحيدة التي أنالت يربوب محلاً سامياً كهذا في أعين جاراتها. بل هناك قوّة أخرى رفعتها فوق كلّ قريناتها. وتلك القوّة هي الشيخ

بطرس الناقوس ـ أو كما يدعوه أهل القرية والجوار وموظفو المركز ـ الشيخ أبو ناصيف.

ورث أبو ناصيف المشيخة أباً عن جدّ. وشيوخ القرية الذين أدركوا أباه من قبله في ذاك المركز أقرّوا بصوت واحد أنّه يفوق المرحوم بدرجات. أوّلاً ـ أبو ناصيف كاتب قارئ والمرحوم لم يكن يعرف من حرفة القلم سوى غمس خنصره في المحبرة ليمسح وجه خاتمه بالحبر ثمّ ليلحس الورقة بلسانه وينفخ على الخاتم ويلصقه إلى الورقة بدقة وتأنّ فتظهر هذه الكلمات بخطٍّ فارسي جميل: "الياس بطرس الناقوس شيخ قرية يربوب". كثيرون كانوا يتعجّبون كيف تمكن الحفار من ضمّ هذه الأسماء كلّها على خاتم عادي صغير الحجم، ولكن هذا الأمر كان من بعض الفضائل التي أكّدت للمرحوم أنّه أعظم وأكبر من بقيّة من حوله.

ثانياً ـ المرحوم عاش ومات وهو ينام على الأرض ويأكل على صينيّة من القشّ، بملعقة من خشب أو بيديه. أمّا أبو ناصيف فقد اقتنى سريراً و"ناموسية" وطاولة للأكل وكراسي للجلوس..إلخ. وإذا نزل به ضيف كريم لا يندر أن يخرج من بعض صناديقه ملاعق وسكاكين وشوكات، مع أنّه ـ على قول العارفين ـ يؤثر أن يتبع خطّة أبيه وكثيراً ما يترك الشوكة والسكين ويعمد إلى أصابعه حتى أمام الضيوف. وهو يفضّل كذلك النوم على الأرض.

ثالثاً ـ المرحوم عاش ومات وعلى رأسه طربوش فرنساوي لفّ حوله منديلاً أزرق وعلى ساقيه "شروال" من الخام المصبوغ وعلى وسطه "كمر" كان يضعه دائماً تحت مخدته عندما يسلّم نفسه لإله النوم

(والبعض يقول إنه مات وذاك الكمر تحت مخدته). أما أبو ناصيف فتراه يتجوّل بطربوش عزيزي وقنباز وزنّار من حرير، و"لستيك" على الموضة. وفي الأعياد الكبيرة أو عند استقبال ضيوف كبار كالقائمقام أو المدير أو المطران وغيرهم لا يندر أن تراه في بذلة إفرنجيّة وقميص مكوي وطربوش مائل فوق جبهته يلامس حاجبه الأمين. (أخبرني من عرف أبا ناصيف جيّداً أنّه ظهر مرّة عند استقبال القائمقام وعلى صدره ساعة ذهبيّة، وإذْ سأله سعادته عن الوقت تلعثم وانقلب لونه وأجاب أن الساعة واقفة. ومن ذاك الحين لم يعد أحد يرى "السكتك" الذهبي على صدره).

هناك أشياء كثيرة يفوق بها أبو ناصيف المرحوم والده يخبركم عنها كلّ من سألتم في يربوب وجوارها. لو سألتم لعلمتم مثلاً أن أبا ناصيف له "هيبة ووهرة" في المجالس وكلمة في المحكمة لم تكن لوالده، وحيثما وقع أهل البلدة في مشكل أو مأزق كانت يد أبي ناصيف هناك، ولا يمضي كثير من الوقت حتى يزول الخلاف وتنحلّ العقدة.

وهناك مزية أخرى يفوق بها أبو ناصيف أهل قريته، وذاك أنّهم عندما يبدأون بعَدّ البيوت التي نزح بعض أعضائها إلى أمريكا يصلون إلى بيت الشيخ ويقفون لأنّه هو البيت الوحيد في يربوب الذي لم يدفع به جزية لكولومبوس.

الأطفال والشبّان والشيوخ كلّهم يوقّرون أبا ناصيف ويحترمون جانبه، لكن بعض النساء الثرثارات كثيراً ما يتداولن في جلساتهن السريّة حديثاً ليس محموداً عن الشيخ، إمّا حسداً أو بغضاً. لكنهن

يتناقلن الأخبار بأنّهن يسمعن أحياناً صراخاً في بيت الشيخ، وكثيراً ما رأين الشيخة مورّمة الرأس مزرقّة الوجه دامعة العينين. هناك امرأة اسمها بربارة تهمس أحياناً لرفيقاتها أنها لمّا أخذت مرّة للشيخ سطلاً من اللبن وجدته ماسكاً بخناق الشيخة والسمّ يقطر من عينيه، وشارباه يرتجفان، والشيخة مطروحة على الأرض وشعرها يستر وجهها. وبربارة هذه نفسها تنقل عن الشيخ أخباراً كثيرة. منها أنّها وجدت الشيخة يوماً مسجونة في الإسطبل مع البقر والخيل، تكاد تموت جوعاً. وأنها أتتها برغيفٍ من الخبز. ومنها أن الشيخ "كتب" للشيخة بالموت...إلخ. ولا عجب، فقوَّة النساء على اختلاق الأخبار عظيمة.

لكن الحقيقة التي ليست مكتومة عن أحد في القرية هي أن للشيخ سبع بنات، وأنّه لا يحبّ أن يسمع أحداً يذكر أمامه شيئاً عن بناته، وأنّه يغير الحديث كلّما سأله أحد عن الشيخة. وأنّه يُطرق إذا التقى امرأة تحمل على ذراعيها طفلاً ذكراً. وأنّه يغصّ بريقه كلّما قال له أحد: "عقبَى لفرحة عريس". وأنه نذر نصف كرمه لمار الياس ـ عليه السلام ـ إذا جاءه صبيّ. وأخيراً إن الشيخة حامل وستضع عمّا قريب.

***

عام 1908 كعام 1907 قبله هبط قرية يربوب تحت صفير الرياح وولولة الأودية. والآن تنوح فوق بقاياه العاصفة وتستره أكفان الظلمة، والسماء تفرش فوق لحده بساطاً أبيضَ لتستقبل عليه عام 1909.

في القرية بعض أنوار لا تزال تتألّق من نوافذ البيوت وشقوق الأبواب. هناك بعض شبان وصبيان اجتمعوا "ليحركوا بختهم" ـ بعضهم بالجوز وبعضهم باللوز وبعضهم بالفلوس ـ تسمع لهم بين الآونة والأخرى قهقهة تحملها الأرياح وتدفنها في بطن الوادي.

تقدّم الليل وأخذت الأنوار تموت الواحد تلو الآخر، كأن روح العام القديم أبت أن تنسل من وجه العام الجديد تحت ذرة من النور وأن تبلّغه وصاياه بقرية يربوب على مسمع أحد ما من أهل تلك القرية. ولم تلفظ السنة القديمة آخر أنفاسها وتنبثق الجديدة من جلباب الأزلية حتى كانت القرية كلّها بشيوخها وفتيانها وأطفالها وكلابها قد غرقت في بحر من النوم طويل. (نوماً هنيئاً يا عزيزتي يربوب!).

هناك ضوء منفرد شحيح لا يزال يلمع في أحد البيوت كأنّه يحارب الموت ـ يهب وينطفئ. أتلك ولولة العاصفة تضرب بنوافذ ذاك البيت فتعود من هناك كأنّةٍ طويلة مؤلمة؟ أم ذاك عواء كلب تلعب به أمواج الريح فتجعله يشابه الأنّة؟ أم هو صوت بشري خارج من صدر يقطّعه الألم؟

العاصفة تنوح والسماء تبكي، وفي تلك الضوضاء تسمع بين الآونة والأخرى صرخات متقطعة تخرج من نوافذ ذاك البيت حيث الضوء. تلك صرخات خارجة من صدر بشري، صرخات استغاثة.

"يا يسوع!.. يا عذراء!.. يا مار الياس!..."

هذا هو بيت الشيخ أبي ناصيف، والمستغيث هو الشيخة التي تتمخّض إمّا بذكر أو بأنثى. لا أحد حولها سوى القابلة ـ عجوز تناهز

السبعين يظهر أنها قد أتقنت مهنتها وألفت كلّ ما يرافقها من المشاهد والفصول. لم تخدش الأيام جمال وجهها إلا ببعض خطوط تتجعد وتتبسط فتشفّ عن انفعالاتها النفسانيّة. ولا شكّ أنّها الآن في ارتباك عظيم لأن هاته الخطوط تتجعد أكثر ممّا تتبسط. هي تدرك أن العام الجديد قد ابتدأ وأنّه إذا ولد للشيخ صبيّ عن يدها هذه المرّة فربّما لا تخرج من بيته بأقل من "ذهب إنكليز" وفسطان وربّما تحظى ببابوج جديد. هي تنتظر هذه الفرصة من زمان وربّما صلّت لمار الياس ومار جرجس لأجلها أكثر ممّا صلّى الشيخ والشيخة معاً. وهي تفضل الموت على أن تبشر أبا ناصيف للمرّة الثامنة بعروس بدلاً من عريس، وأن تراه يقطّب حاجبيه، ويزيد ويلبط الأرض ويناولها زهراوياً[1] فقط. نعم الموت أولى .

أمّا الشيخ أبو ناصيف فهو في الغرفة المجاورة يذرعها ذهاباً وإياباً بخطوات كبيرة وراس قد انحنى تحت ضغط أفكار تكاثفت حتى صارت في عينيه أشخاصاً حيّة ملأت فضاء الغرفة ولم تبقِ له مجالاً للحركة. أصوات ترنّ في أذنيه، وأشباح تمرّ أمام عينيه. أتون في رأسه، وزوبعة في نفسه. وتلك العاصفة الجنية، التي تصرخ وتعول وترقص حول البيت فترقص معها النوافذ والأبواب، ماذا تطلب منه وبماذا تبشره؟ بعريس أم بعروس؟

---

[1] قطعة من النقد التركي المتداول قبل الحرب العالمية الأولى وقيمتها نحو ستة قروش مصرية.

الأشباح تبرم معه وتدور حوله كراقصات في عرس أو كنائحات في جنازة. وقد سدّت في وجهه المسالك وقيّدت خطواته فانتصب في وسط الغرفة كصنم تجمهرت حوله ألوف من العابدين تتألب جيوشهم كأمواج يمٍّ تفجّرت تحته بركانات، وهذه الأمواج تركض نحوه من كلّ جانب.

ها قد غمرته إلى صدره فأحس كأن صنين أناخ عليه بقممه وتلاله. ها قد طوّقت عنقه وضغطت عليه بكلّ قواها: "بنت؟..".

ضاقت أنفاسه. ثقل رأسه. أظلم النور في عينيه. هو يغرق.

- "يا يسوع!..".

خرّ أبو ناصيف على ركبتيه ورفع يديه وعينيه إلى صورة على الحائط تمثّل رجلاً مصلوباً. ركدت الأمواج ورجع صنين إلى مكانه وكفّت الراقصات والنائحات. ماتت العاصفة واختفت الأشباح والأرواح. أبو ناصيف وحده في الغرفة محدق إلى صورة المصلوب واللصين عن جنبيه. غاب اللصان عن بصره فهو لا يرى سوى المصلوب في الوسط والدم يسيل من جنبه ويديه ورجليه المسمّرة. اختلطت الألوان والخطوط في عينيه، فهو لا يرى رأس المصلوب وقد انحنى تحت إكليل الشوك ولا يديه ولا رجليه ولا الصليب، بل نقطة الدم الخارجة من جنبه. الصورة كلها تحوّلت في عينيه إلى بركة من الدم. ها وجه البركة يتجعّد ومن الدم يخرج رأس صغير أزغب فيدان فصدر فبطن فرجلان. الصورة تتحرّك وتتململ. تلك ليست صورة ثلاثة مصلوبين بل صورة طفل ذكر. هذا الطفل يمد يديه الصغيرتين نحو أبي ناصيف. ها هو ينزل عن الحائط ويدرج نحوه. هو ليس طفلاً بل شاب في أوّل

العمر. أبو ناصيف يفتح له ذراعيه، ويضمّه إلى صدره ويقبّله بحرارة لم يقبّل بها بعد مخلوق مخلوقاً. نعم. هذا هو ناصيف. هذا هو أوّل وآخر آماله. هذا حلم حياته وعكاز شيخوخته ووريث ثروته ومحيي شرف عائلته. اسم بيت الناقوس لن يمحى عن وجه الأرض. وختم المشيخة لن يقع في يدٍ غريبة. والمطران عند زيارته قرية يربوب لن ينزل في دار غير دار بيت الناقوس. وجاره الياس الحندقوق لن يفتخر عليه بصبيانه الخمسة.

وأم ناصيف! آه. هو سيقبّل رجليها كلّ صباح ومساء وسيستغفر منها ألف مرّة في النهار عن سيئاته السابقة نحوها وسيقسم لها بحياة ناصيف أنّه لن يمسّ شعرة من جسمها بغضب وبغض. وسيخدمها بماء عينيه ودم قلبه وسيجعلها زينة البلدة.

اليوم رأس السنة وعند الفجر سينتشر الخبر عن ولادة صبيّ للشيخ. ستأتي القرية بشيوخها وأطفالها لتشاركه بالفرح. أهلاً بهم، فأبو ناصيف سيدع الخمر تجري أنهاراً والذبائح تدوم أسبوعاً أو شهراً.

وإذا كان المولود بنتاً؟..

مرّ هذا الفكر كسحابة سوداء في الغرفة فارتجف أبو ناصيف بكلّ أعضائه وأظلمت عيناه.

"يا.. مار.. الياس!.."

عاد النور إلى قلب أبي ناصيف وانقشعت الغمامة عن عينيه فظهر ناصيف ثانية في حضرة والده. لا. لا. فمار الياس سيجيب هذه المرّة نداء قلب كسير. مار الياس الذي يعتبره أبو ناصيف أكثر من كلّ

القديسين فلا يحلف إلا باسمه ولا يصلّي إلاّ في كنيسته ولا يمرّ عليه أحد أو عيد إلاّ يضع "متليكاً" في صينيته. مار الياس الذي قدم له أبو ناصيف شمعداناً من الفضة وأيقونة مذهبة. نعم. مار الياس يعرف أن الشيخ يستحق ولداً ذكراً أكثر من كل رجل في القرية، وعلاوة على ذلك فأبو ناصيف مستعد أن يقف له نصف كرمه إذا أجاب طلبته. مار الياس لا ينكر الجميل.

"يا.. عذ..را..!"

عادت القشعريرة إلى جسم أبي ناصيف والخلاء إلى قلبه والظلمة إلى عينيه. احتجب عنه ناصيف وحلت مكانه صورة شيطانيّة ـ صورة طفلة تتململ في المهد. تلك الصورة المعلقة على الحائط والتي تمثل امرأة حاملة طفلاً على ذراعيها بدأت تتحرّك وترتعش. ها قد انحدرت المرأة وطفلها إلى الأرض. هي تنظر إليه بحنوّ وتقترب منه وقد تحركت شفتاها كأنّها تريد أن تخاطبه. الطفل على يدها ليس صبياً بل بنت. ماذا تريد منه هذه المرأة وماذا تشاء أن تقول له؟ أبو ناصيف يتميّز. غيظاً منها ويده ترتفع ليفتك بها. لكنّها تبتسم وقد فتحت فاها وتلك الابتسامة تزيد في غيظ أبي ناصيف ناراً. هو يجمع آخر قواه ليتماسك عن ضربها. تكلّمي! تكلّمي! هو يجمع آخر قواه ليتماسك عن ضربها. تكلّمي! تكلّمي!

"بنت! بنت! بنت!.."

امتلأت الغرفة فجأة بهذه الكلمات فأحسّ أبو ناصيف كأنها أنياب تنشب فيه كيفما انقلب. "بنت! بنت! بنت!".

خسئت يا خائنة بل صبي! صبي! صبي! ـ هبَّ أبو ناصيف من سجدته كملسوع واندفع إلى صورة المرأة على الحائط فأخذها ومزّقها نتفاً وطرح بها إلى الأرض وداسها برجليه مردّداً: "صبي! صبي! صبي!".

عاد أبو ناصيف يتمشى بخطوات أوسع من الأولى ورأس أثقل من جبل صنين، وعادت العاصفة تتابع جنازتها حول البيت فيخيل إليه أنّها تجنز آماله وتردّد "بنت! بنت! بنت!..

وْع. وع. وع!

انقبض قلب أبي ناصيف فجمد في مكانه كمن أصيب بمس. أحب أن يخطو فلم تطاوعه رجلاه، وأن يرسم الصليب على وجهه فخانته يده.

صبي أم بنت؟ أينتظر إلى أن تأتي القابلة فتبشره بولادة ناصيف أم يذهب هو ليستقبل وريثه وقرّة عينه؟

وإذا كان بنتاً؟ "اخنقها!"

"ماذا؟" ـ لسانه لم يطاوعه ليلفظ أكثر من هذه الكلمة.

قطعت الأم نحباتها وحبست القابلة أنفاسها، وكأن الطفل شاركهما بذلك فلم ينطق سوى مرَّة واحدة "وع".

"ماذا؟" ـ أعاد الشيخ سؤاله بعد لحظة ظهرت له أطول من دهر. سكينة أعمق من سكينة القبور عادت فسادت في جوانب الغرفة فكاد الشيخ يأكل لحمه غضباً.

"بنت؟" ـ سقطت هذه الكلمة من فمه كقصفة رعد في تلك السكينة الميتة. فذعرت القابلة وارتجفت أحشاؤها. ثم تحركت شفتاها محاولة النطق فخانتها شفتاها ولم تنبسا إلاّ بحرف واحد:

ـ ب.... ب.... ب.... ـ وانقطعت أنحابها.

لمعت عينا أبي ناصيف ثانية بذاك البرق الجهنمي فانقض بلمحة طرف على القابلة انقضاض نسر على أرنب وخطف الطفلة من يدها وانطرح إلى الباب ففتحه وركض إلى الإسطبل فأخذ من هناك رفشاً وسار توّاً إلى غابة الصنوبر وراء الكنيسة.

الرياح تعصف والثلج ينهمر والأشجار ترقص وأبو ناصيف يحفر.

***

بزغ الفجر وبدأ أهل القرية يهنئ بعضهم بعضاً: "عاماً سعيداً. كلّ سنة وأنتم سالمون". أمّا في المقبرة وراء الكنيسة فكانت الأشجار تندب والعاصفة تنوح والسماء تبكي بدموع متجمدة وجرس الكنيسة ينادي: "كل عام وأنتم سالمون!".

***

إذا رأيتم بربارة من قرية يربوب سلوها تخبركم بأن القرية لا تزال مشهورة بجودة نبيذها وعرقها وبقرها. وإن الشبان الآتين من أمريكا لا يزالون يحجّون إليها قبل سواها. وإن ختم المشيخة لا يزال

في يد أبي ناصيف. وأن الكلّ يقولون: "مسكين يا أبا ناصيف!" إذ قد ولد له صبي ميت فدفنه وحده بيده. ولكن هي ـ بربارة ـ تخبركم سرّاً عن لسان القابلة التي لم تبح بهذا السرّ لسواها أن المولود كان بنتاً وأن الشيخ أعطى القابلة "ذهبين إنكليز" كي تذيع أن المولود كان صبيّاً جهيضاً. وأن الشيخ بقي يضرب الشيخة حتى اختلّ صوابها لا يدعها الآن تخرج من البيت. وأنّه ـ أعني الشيخ ـ من ذاك الوقت لم يطأ أرض كنيسة مار الياس، وأن البعض يقولون إنّه ربما غيّر دينه وهجر يربوب إلى الأبد.

نعم. قرية يربوب مشهورة بأمور كثيرة!

"1914"

العَاقِر

"يكلّل عبد الله عزيز" على عَبْدة الله "جميلة" بسم الآب والابن والروح القدس!".

لما فاه الخوري بولس بهذه الكلمات مساء العاشر من أيّار سنة 1900 في قاعة فسيحة، غنيّة بالرياش والزخرفة، من دار أبي عزيز الكرباج، هبطت على مئات من المدعوين إلى العرس سكينة خرساء تجلّلها هيبة سماويّة. فالأطفال والأحداث، والعذارى والفتيان، والكهول والشيوخ، كلّهم حبسوا أنفاسهم كأنّهم يصغْون إلى رفرفة أجنحة خفيّة. والخوري بولس نفسه، الذي ربط في حياته بوثاق الزيجة نحو الألف من أبناء قطيعه المحفوظ من الرب، لفظ هذه الكلمات تلك الليلة بصوت غير صوته العادي حتى خيّل لسامعه أن الروح القدس كان يتكلّم بلسانه. ربما كان ذاك لأن الخوري بولس في كلّ حياته الطويلة التي قضاها خادماً للربّ أدرك لأوّل مرّة أهميّة كلماته، وتنورت روحه فرأى الزيجة كسرٍ مقدّس إلهي لا كطقس كنائسي بسيط، أو ربّما كان أن الخوري، من يوم اقتبل شرف الكهنوت حتى تلك الدقيقة، لم يرفع يده ليبارك رباط عروسين كعزيز الكرباج وجميلة البشتاوي. لكن الحضور شعروا فجأة أنهم في حضرة قوّة

علويّة، وتحوّلت القاعة في أعينهم، مع كلّ ما فيها من أنوار الشموع الملتوية. الراقصة، المنتصبة نحو العلاء، إلى هيكل طاهر يتمّ فيه سرّ مقدّس عميق. لذاك توشّحوا بالسكوت والورع.

لا شكّ في أنّ منظر العروسين كان ممّا زاد المشهد هيبةً وجلالاً. فعزيز الكرباج، وحيد أبيه وأمّه، كان أجمل شابّ في كلّ البلدة وجوارها، بل في كلّ لبنان إذا صدقنا ما قاله عنه الكثيرون أن "اللّه خلقه و رفع يده": طويل القامة، ممتلئ الجسم، أبيض البشرة، مستدير الوجه، يسقي بياضه دم الشباب. في عينيه تضحك الحياة وفي شاربيه الصغيرين تتجلّى قوّة الاعتماد على النفس والثقة بالذات والفخر بما فعله وسيفعله بعد في هذا العالم. هجر والديه لما كان له من العمر 18 سنة. جاء أمريكا فأفلح في التجارة وجمع من الثروة نحو 5000 دولار في مدة قصيرة. ووجد في أثناء ذلك وقتاً ليصرفه على تثقيف ذاته. فدرس وتعلّم وحصل ما لا يحصله ألوف من المهاجرين اللبنانيّين والسوريين في عشرات من السنين. ثمّ لبى دعوة والديه فعاد إلى لبنان وبنى داراً فخمة ـ أحسن دار في كلّ البلدة ـ وفتح تجارة جديدة. كلّ ذلك وهو لم يتخط الخامسة والعشرين من سنيه وكان أهل البلدة يتحدّثون باجتهاده وعقله ولينه ودماثة أخلاقه. فهو لا يشتم ولا يلعن. ولا يسبّ الدين، لا يسكر، لا يلعب بالقمار ولا يدخن. يدعو كل شيخ في البلدة :جدي" وكلّ عجوز "ستي" وكل كهل "عمي" أو "خالي" وكلّ كهلة "عمتي" أو "خالتي" وكلّ شاب "أخي" وكلّ فتاة "أختي". يحيي الطفل ويحيي الشيخ قبل أن يبادراه بالتحيّة، ويرفع قبعته عن رأسه باعتبار وإجلال عندما يحيي النساء.

وكم من الشبان الحاضرين حسدوا عزيز الكرباج في أعماق قلوبهم وتمنّوا لو كانوا في ثيابه تلك الليلة، والبعض ينقلون عن لسان الخوري بولس أن هذا الشيخ الجليل المحترم اعترف بأنّه في خمسين سنة قضاها في خدمة الكنيسة لم يشتهِ مرّة واحدة أن يبدل حلله الكهنوتيّة بكلّ ثروة العالم. لكنّه لما أمر العروسين ـ عزيز الكرباج وجميلة البشتاوي ـ أن يتبادلا قبلة المحبة تمنّى في تلك الدقيقة لو كان في ثياب العريس!

أمّا جميلة البشتاوي، فعدا جمالها الساحر، كانت تتحلّى بصفات قلّما اجتمعت بفتاة في كلّ ذاك الجوار أو سواه. إذ دار عنها الحديث في أيّ مجلس كان ـ سواء مجلس نساء أم رجال، أو مجلس رجال ونساء معاً ـ فأوّل ما تتناوله الألسن حسنها الرائع، ثمّ ينتقل المتحدّثون إلى طباعها وعلمها وثروتها. يقول واحد إنّها ملاك ـ الأرض لا تشعر بها ـ فيزيد الآخر أنّها "عالمة" ويعني أنّها أنهت مدرسة داخليّة للبنات "وأخذت الشهادة".

ويتابع الثالث فيقول إنها وحيدة وأن أباها قد ترك لها بعد وفاته أرزاقاً واسعة و"صندوقاً" من المال. ويضيف الرابع أنّها سترث أرزاق عمّها لأنّها وريثته الوحيدة. لذلك فلا عجيب إذا ظلّ زفافها إلى عزيز الكرباج موضوع جلسات الرجال والنساء في البلدة مدّة أسبوع على الأقلّ.

***

مضت الأشهر الأولى من حياة جميلة الزوجيّة كيوم من أيّام الربيع لم ترَ سماؤه غيمة على الإطلاق، وهواؤه وأشجاره وأزهاره وأعشابه وأنهاره وذباباته وحشراته كلّها ثملى بخمرة الحياة ولذّة التجدّد كأنّها في مهرجان عظيم؛ وجميلة كانت في بيتها الجديد ـ بين حميها أبي عزيز وحماتها أم عزيز وشريك حياتها عزيز ـ محور حياتهم اليوميّة، حولها تدور أفكارهم وبها تناط آمالهم. لأجلها يتعبون ولأجلها يعيشون. إذا ضحكت ضحكوا، وإن عبست عبسوا، كأنّها ينبوع حياتهم ومصدر كلّ أفراحهم وأتراحهم.

لّما انتهت مدّة التهاني بعد العرس اقترحت أم عزيز على ابنها أن يأخذ زوجته إلى بيروت أو الشام "تغييراً للهواء"، فصادف هذا الاقتراح استحسان الجميع وزار الزوجان الشام وزحلة وبيروت، وعندما رجعا هرعت أم عزيز إلى جميلة تعانقها وتقبّلها وتضمّها إلى صدرها صارخة بلهفة: "حبيبتي. أطلت الغيبة! حبيبتي، احترق قلبي بلاكِ" ثمّ ألقت نظرة على يدي كنتها فرأت بعض خواتم جديدة على أصابعها وسوارات ذهبيّة على معصميها وساعة جديدة معلقة بسلسلة ثمينة على صدرها، فكادت تطير فرحاً.

أمّا عزيز فكان حبّه لزوجته في خلال الأشهر الأولى يتجدّد كلّ يوم. فكلّ يوم كان عنده عرساً. عندما يذهب صباحاً إلى مخزنه يتزوّد قبلة منها، وإذ يعود عند المساء يجدها بانتظاره في الباب فيأخذها بين ذراعيه ويضمّها إلى صدره منحنياً فوق وجهها ثمّ يسألها مقبلاً شفتيها الورديتين: "كيف حال قرقورتي[1] اليوم؟".

---

[1] "القروقور" في لغة اللبنانيين هو حمل الشاة. والقرقورة أنثاه.

"القرقورة" و"القرقور" أصبحا في قاموس حياتهما اليوميّة اسمي علم حلاً محل "جميلة" اسمها الجديد حتى كادت تنسى اسمها الأصلي، وكذلك عزيز. وكلاهما كان يكره الزائرين ليس لسبب مادي أو تقاعداً عن القيام بواجبات الضيافة الشرقيّة بل لأن الزائرين كانوا يأخذون قسماً من وقتهما الثمين الذي كانا يرغبان أن يصرفاه معاً. وبالأخص لأنّهما في حضرة الغرباء كانا يضطرّان أن يرجعا إلى "عزيز" و"جميلة" بدلاً من القرقور والقرقورة.

جميلة كانت تكره الزائرين لسبب آخر لم تطلع زوجها عليه. وذاك لأن كل زائر كان يعد واجبات اللياقة واللطف أن يقول لها كلّما قدّمت له لفافة من التبغ أو فنجاناً من القهوة أو نارجيلة أو نحو ذلك: "إن شاء الله نفرح لك بعريس". فكانت هذه الطلبات والتنميات الدائمة كقطرات سمّ في كأس سعادتها الطافحة. حب عزيز وقرب عزيز وقبلات عزيز هذه هي سعادتها وكمال حياتها. فلماذا كلّ هذه التمنيات كأن حياتها ليست كاملة بدون "عريس"؟.

مرّةً، بعدما انصرف الضيوف واختلت مع عزيز في مخدعها تقدّمت إليه بلطف وأخذت طرف شاربه الأيسر بيدها اليمنى لتقبّله ثمّ قالت:

ـ اسمع يا قرقور! ألا تتضجر من كثرة تمنيات هؤلاء الناس البلداء "من فرحة عريس" يرمونك بها أينما صادفوك، وفي كل الأحوال، ومهما كان موضوع الحديث؟ قد بدأت أنفر منها حتى صرت أكره معاشرة الناس لأجلها!

طرحت هذا السؤال على زوجها وهي متأكدة أنّه سيجيبها بأنّه يكره تلك التمنيات مثلها أو أكثر وأنّه يتحمّلها لأن لا سلطة له فوق الغير ليلجم ألسنتهم. وشدّ ما كان عجبها عندما سمعت جوابه:

ـ هل نشتم الناس يا "قرقورة" إذا كانوا يتمنّون لنا السعادة؟

إنّ هذا الجواب أكّد لجميلة أن متابعة الحديث في هذا الباب ربما كشفت لها الستر عن أوّل تناقض في الأفكار والمعتقدات بينها وبين عزيز. وهي كانت تثق بكل وجودها، حتى تلك الدقيقة، أن حياتها مع عزيز ستدوم كما كانت إلى تلك الليلة، ربيعاً دائماً لا يعكرها أقلّ اختلاف في الميول والأذواق والآراء والمعتقدات، لذلك كانت تخاف أن تجد ولو نقطة صغيرة لا يتفق فيها ذوقها مع ذوق زوجها.

عندما همّ عزيز أن يشتري لها حلاها في بيروت تمنعت كل التمنع لأنها ـ كما قالت حينئذٍ ـ لم تشأ أن تكون "حمارة مشنشلة بالذهب" ولأنها تعد التحلي بالذهب والألماس عاراً على امرأة لها من جمالها وطباعها وحب زوجها ما يكفيها حلية مدى حياتها. لكن عزيزاً أصرّ على عزمه وأسكتها بقوله أن حجتها هي "حجة الفقراء" وأن الأفضل أن تلبس لكل حالة لبوسها، وأن مقامها في الهيئة الاجتماعية يحتم عليها أن تلبس حلى ذهبية وماسية، فأذعنت لإرادته لا لأنها اقتنعت بقوة برهانه، بل لأنها قررت في عقلها أن سعادة الزوجين تطلب اتفاقاً تاماً في الأذواق، ولأجل تلك السعادة أخضعت ذوقها لذوق زوجها. ولذاك خشيت الآن من متابعة الحديث خوفاً من أن تصل إلى حيث لا تشتهي. لكن طبيعتها النسائية، تلك الطبيعة نفسها

التي حملت جدتها حواء على الأكل من الثمرة المحرمة، دفعتها الآن إلى متابعة الحديث الذي فتحته فجأة وما كانت تظنه على شيء من الأهمية:

ـ أوَلسنا سعيدين بلا "عريس"؟ وهل سعادتنا لا تكمل بغير أولاد؟

قالت ذلك وطرف شارب زوجها لا يزال بين أصابعها تلعب به وعيناها محدقتان إلى عينيه كأنّها تقرأ فيهما ما أحدث سؤالها في قلبه.

ـ لماذا هذه الأسئلة يا قرقورة؟.. ولكن لو رزقنا الله "عريساً" كما يتمنّى لنا هؤلاء القوم الذين تتضجرين منهم، أفلا تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا؟

ـ لم تسمع جميلة هذا الجواب حتى ارتخت أصابع يدها اليمنى فسقط من بينها شارب زوجها وحوّلت نظرها إلى الأرض. إذن سعادة عزيز بحبها ليست كاملة. إذن حبه لها لم يبلغ حدّه بعد ولا يزال قابلاً للزيادة والتضاعف. ولماذا قد امتد حبها له واتسع حتى غمر كل حياتها كموجة جارفة فأصبح عزيز في حياتها الكل بالكل؟ لماذا لا تطلب زيادة سعادة ولا تسأل ربها إلاّ أن يبقى لها ما تملكه الآن؟ هي لا تبغض البنين، كلاّ بل تشتهي من كل قلبها أن تصبح أمّاً. لكن هذه الشهوة ـ سواء تحققت أم لم تتحقق ـ لا تزيد ولا تقلل من سعادتها ما دام حب عزيز يدفئها ويدور مع دم قلبها إلى كل أعضاء جسمها. فلماذا يتكلم عزيز عن "كمال السعادة" و"تضاعف الحب"؟..

دارت هذه الأفكار في رأس جميلة بأقل من طرفة عين، فوجدت نفسها مدفوعة إلى أن تسبر غور زوجها إلى النهاية. فعادت ورفعت عينيها إلى وجهه محاولة أن تعيد إليهما كل اللطف والحنو والاستسلام التي كانت فيهما قبلاً، وقالت آخذة بيد زوجها اليمنى:

ـ اعذرني يا قرقور على هذه الأسئلة البليدة ولكن... ولكن لنفرض...

قالت ذلك ووقفت كأنّها خافت أن تفوه ببقية الكلمات التي كانت تدور على طرف لسانها.

ـ لنفرض ماذا؟

ـــ لنفرض... لنفرض أن اللّه لم يرزقنا... أن اللّه بخل علينا "بعريس" أو "بعروس"... فهل... بضعف حبك نحوي حينئذٍ وهل تعد سعادتك ناقصة؟

ـ للّه ما أكثر أسئلتك الليلة! قلت لكِ إنه إذا منّ اللّه علينا "بعريس" تكمل سعادتنا ويتضاعف حبنا. وإذا... وإذا لم يشأ اللّه أن يهبنا ذرية... فـ... فماذا نقدر أن نفعل؟ لا يبقى لنا إلا أن نخضع لإرادته. دعينا من هذا الحديث فهو بلا جدوى وتعالي لننام!

أخذ عزيز بيد زوجته وأمالها إلى صدره، ولأول مرة بعد إكليلهما قبّلها ولم يشعر بحرارة تتسرّب من جسمها إلى جسمه، ولا أحسّ دقات قلبها على صدره وبرودة أنفاسها على وجهه.

***

أمّا أم عزيز فلم يبقَ لها غاية في الدنيا سوى الملاحظة والسهر على راحة كنّتها. وذاك، في عرفها، ينحصر في أن لا تدع جميلة تقوم بشيء من أشغال البيت، لذاك لما تغيبت ذات يوم عن البيت نحو ساعة أو ساعتين ورجعت فوجدت كنّتها في ساحة الدار والمكنسة في يدها كادت تغيب عن صوابها: "ويحي! ويحي! ليتني ما كنت! ليتني تحت التراب! أمثلك تكنس؟ يدان كيديك لا يليق بهما إلاّ الذهب والأطالس والحرير. هاتي. هاتي، هاتي روحي فتّشي لك عن كتاب تقرئينه!".

عبثاً حاولت جميلة أن تبرهن لحماتها أن لا عيب في شغل البيت، وإنها لا تتعب من التكنيس، وأنها قد ضجرت من الجلوس والقراءة، ولذلك تطلب حركة جسدية. تلك البراهين قد تقنع أبا عزيز، لكن أم عزيز قد شربت من ينبوع فلسفة غير تلك الفلسفة. وفلسفتها أن "بنات الأكابر" يجب أن لا يعملن عملاً على الإطلاق سوى الأكل والشرب والتأنّق في اللباس. وإلاّ فماذا يقول عنهن العالم؟

لمّا رجع عزيز تلك الليلة واستقبلته جميلة حسب عادتها هرولت نحو أمّه وأخذت تشكو له بصوت ربعه مزاح وثلاثة أرباعه جد ما رأته من "القرقورة" في ذلك النهار من محاولتها أن تنظف البيت. فوافق عزيز أمه على كل ما قالته من أن الكناسة ومسح الغبار وغسل الصحون وما شابه ليس "من خرج بنات الأوادم" وأخذا عهداً للحال على جميلة - قسراً عن إرادتها - أن لا تعود لمثل تلك الأشغال.

وفي اليوم الثاني ذهب واستأجر خادمة إجابة لإلحاح أمّه وطبقاً لرأيه الخاص. ولكي يكون لجميلة ما تقضي به ساعات فراغها

الطويلة كان يأتيها من مدة إلى مدة برواية أو مجلة أو جريدة. وجميلة كانت تطالع كل رواية يأتيها بها زوجها. لكنها لم تكتفِ بالمطالعة بل كانت تشعر أن قوى الشباب فيها تطلب شغلاً جسدياً مع الشغل العقلي فتأسف أن ترى ذاتها محرومة من تلك اللذة إرضاء لخاطر زوجها وأمه وأبيه.

لكن هذا الفراغ في حياتها لم يكن ليقلق راحتها العقلية والنفسانية لولا أنه أخذ يتسع مع الأيام حتى لم تعد قادرة أن لا تراه. لاسيما لما بدأت تشعر ببرودة من زوجها في علاقتها معه.

مرّ عام وتلاه الثاني بعد زواجهما، وكلّ يوم جديد كان يؤكد لجميلة أن هاوية فغرت فاها بينها وبين عزيز. هو لم يزل يناديها "قرقورة" وهي لا تزال تناديه "قرقور" وتستقبله كل مساء في الباب أو عند أسفل الدرج خارجاً. لكن ذاك الحنو في صوته وتلك اللهفة في عينيه تبخرا كدموع الندى عن وجنات الأزهار بعد طلوع الشمس. ولم يبقَ من أثر لتلك الابتسامة اللطيفة، ابتسامة العاشق، على وجهه الجميل. ووجهه لم يعد كالسابق مرآة مصقولة تشفّ عن كل حركات روحه وقلبه بل أصبح الآن وجه بحر رائق تمثل الحياة تحته مشاهد خفية لا تراها العين ولا تسمعها الأذن. وذاك النور الإلهي في عينيه الذي كان يملأ قلبها بألذّ ألحان السعادة والحب قد انطفأ الآن وحل محله فكر أسود عميق تهب منه نسمات باردة على روح جميلة التي كانت لا تزال تعشق بكل قواها.

إن هذا الانقلاب الغريب لم يأتِ فجأة بل بالتدريج. وجميلة بدأت تلاحظه بعد مرور السنة الأولى لاقترانهما. والآن تراه يزداد يوماً بعد

يوم. قلبها يتوجّع وهي لا تظهر الوجع على وجهها خوفاً من أن تتبخر من روحها آخر قطرة من السعادة التي لا تزال تطلبها نفسها وكل وجدانها . يخيل إليها أحياناً أن ما طرأ على حياتهما لم يكن سوى غمامة مرت بسماء سعادتهما وستتقشع عن قريب. لاسيما عندما تسأل نفسها عن أسباب التغير الذي حدث في علاقات زوجها معها فلا تجدها. وهي لا تزال تحبه كالسابق إن لم يكن أكثر. شفتاها لا تزالان تشتاقان شفتيه وصدرها صدره. هي لا تزال تنتظر رجوعه كل مساء بفروغ صبر وتقف في الباب وعيناها محدقتان إلى جهة واحدة، الجهة التي سيأتي منها. وبالاختصار فعزيز لا يزال "قرقورها: فماذا طرأ على عزيز؟

بقي هذا السؤال يعذب جميلة نهاراً بعد نهار وليلاً بعد ليل، إلى أن سمعت مرة مصادفة هذه المحاورة الوجيزة بين حماتها وعزيز.

ـ يا ابني. إلى متى الصبر؟ انظر إلى امرأتك ودبّرها؟

ـ وكيف أدبّرها؟ هل أنا رب لأخلق أولاداً؟

ـ ويلاه! أهكذا يفعل الناس؟ خذها إلى بيروت. خذها إلى الشام أو دعني أنا أدبّرها. أهكذا ينقطع نسلنا ونحن مكتوفو الأيدي؟

ـ بالله يا أمي اتركيني بحالي. فما بقلبي يكفيني. اعملي ما بدا لك!...

هذا الحديث القصير بين أم عزيز وعزيز فسّر لجميلة كل ما كانت تتوق نفسها المتألّمة إلى معرفته من زمان. لكن معرفتها السر لم تخفف من آلامها بل زادت قلبها انقباضاً ونفسها أوجاعاً. وما

العمل؟ هي تحب عزيزاً ولا تتأخر لحظة أن تموت لأجله، وليس في العالم ما يشقّ عليها أن تضحيه لأجل إرجاع حبه إليها. لكن عزيزاً يطلب ثمن حبه ما ليس في وسعها ولا في وسع العالم كله تقديمه. فهو يطلب منها أولاداً. وما ذنبها إذا كان عاقراً؟ هي لم تعد تبالي بالآلام النفسانية التي يسببها إدراكها إن ما كانت تخشاه قد أصبح الآن حقيقة لا تدحض، وذاك أن سعادة عزيز معها لم تكن تامة بدون "عريس" وإن حب عزيز لها كان حباً جزئياً لا كاملاً.

كل أفكارها تحوّلت إلى نقطة واحدة وهي: هل من سبيل إلى تجديد نار الحب في قلب عزيز؟.. السبيل الوحيد ولادة البنين. وحماتها نوهت عن بيروت والشام. فماذا ترى كانت تعني بذلك؟ هل في بيروت أو الشام أطباء يقدرون أن يجعلوا العاقر تحمل وتلد؟ حماتها وعدت أن تأخذ هذا الأمر على عاتقها، وهي امرأة محنكة مجربة، أفليس الأفضل أن تعمل بكل ما تقوله حماتها؟

لكنها لم تسئ إلى أحد في هذا العالم، فلماذا أساء إليها العالم؟ حبها لعزيز لم تزده الأيام إلا ناراً فلماذا خمدت نار حب عزيز نحوها؟ هي راضية به بدون أولاد، فلماذا لا يرضى هو كذلك بحبها؟ أليس هو المسيء إليها، فلماذا تسعى لتكفّر عن إساءته؟ أليس الأفضل أن تجازيه بالمثل وتقابله على البرودة بالبرودة؟ أليس الأفضل أن تنتهر قلبها ليستكين وأن تطفئ بالدموع لواعج حبّها وآلامها؟ لكن، ربما!... ربما كان في وعد حماتها بعض الأمل. فلماذا لا تتبع بارقة ذاك الأمل؟

بقيت جميلة تتردد بين الشك والعزم. دموعها تهم بالانهمار فتحبسها. وقلبها يكاد ينفجر في صدرها كقنبلة رشاشة، فتقول له: "على مهلك يا قلب!...".

***

أصرّ أم عزيز على رأيها هذه المرة وفازت. وعزيز لم يعارضها. وتمنعات جميلة لم تكن لتقف في طريقها. وهكذا أمرت كنتها يوماً من الأيام أن تعد كل لوازم السفر، وفي الغد "نزلت" معها إلى بيروت بعد أن أعلنت للجيران أنها ذاهبة "لتشمّم كنتها الهواء" لأن كنّتها "وواولداه محصورة!".

وبعد غيبة أسبوع عادت الاثنتان من سياحتهما، وعادت جميلة تراقب موت حبها التدريجي شاعرة أنها تموت معه موتاً بطيئاً موتاً روحياً.

إن بيروت لم تخفف آلامها الجسدية والنفسانية. ومعاملة عزيز لها كانت تزداد خشونة لاسيما بعد أن مرّ عام على زيارتها لبيروت. وإذا كان عزيز قبل تلك الزيارة يقبّلها قبلات ناشفة ويدعوها قرقورتي ولو نادراً فالآن لم يعد يقبّلها على الإطلاق، وعاد يدعوها "جميلة" وقلّما يناديها حتى باسمها. وتعلّم فجأة تدخين النارجيلة فصار عندما يعود إلى البيت يجلس مساءه مع نارجيلته بدلاً من "قرقورته" لا يحدث أحداً ولا يجسر أحد أن يحدثه إلاّ إذا جاء ضيوف فيقابلهم بلطفه العادي كأن لم يطرأ عليه تغيير البتة. وعند الساعة التاسعة تقريباً يذهب إلى غرفة منامه ويقفل الباب وراءه.

أخذت جميلة تذوب كالشمعة. ولم يكن لها أحد في العالم كله تكشف أمامه روحها سوى أمها. ولكن، ماذا تفهم أمها؟ إذا حدثتها عن المسألة التي كانت تمثلها الأيام في قلبها تتنهّد وتبكي ولا تفهم ماذا تقول ابنتها.

أمّها كأم عزيز تنظر إلى عقر ابنتها نظرها إلى قصاص صارم من السماء، إلى فادحة عظيمة، إلى عيب كبير لا يمحى بين الناس. تنظر إلى قرينات جميلة فتراهن يغذين بأثديتهن صبياناً وبنات فتخنقها الغصة إذ تفكر أن ابنتها التي كانت زينة" بنات البلدة، ابنتها التي تحدث الغريب والقريب بجمالها وآدابها، ابنتها التي تقاطر لطلب يدها الشبان من كل جهات لبنان، تمشي الآن ولا لبن في ثدييها ولا طفل على ذراعيها. لذاك بدلاً من أن تجد جميلة تعزية عند أمّها كانت تضطر أن تعزيها.

لم تكتفِ أم عزيز بسياحتها إلى بيروت بل أجبرت كنتها، بعد مرور عام، أن ترافقها إلى الشام، وأعلنت هذه المرة كذلك أنها ذاهبة "لتشمّم كنتها الهواء" لأن كنتها "ووالداه محصورة!" لكن أطباء الشام وأطباء زحلة لم يفعلوا ما قصر عن فعله أطباء بيروت، حينئذٍ لعنت أم عزيز في قلبها الطب والأطباء وعولت أن تستعين "بالمغاربة" فصارت لا تسمع عن مغربي زار البلدة إلا دعته إلى بيتها وشرحت له حكاية كنتها، حتى تحوّل بيت الكرباج إلى نزل يؤمه كل من رفعه صوته في تلك البلدة ونادى: "حكيم، طبيب، دوا للحبة، دوا للعين!" ولم يطل أن تحققت أم عزيز أن حذاقة المغاربة كذلك لم تجدها نفعاً. فما العمل؟

بقي باب لم تطرقه أم عزيز وقد تركته وسيلةً أخيرةً تلجأ إليها إذا ضاقت بها كل الوسائل. ذاك زيارة الأديرة، "عليها السلام". فراحت تتنقّل بكنتها من دير إلى دير.... وجميلة في يدها كآلة خرساء تديرها كيفما شاءت.

في بدء الأمر كانت جميلة تتمنع عن هذه الزيارات، لكنها تحققت بالامتحان أن لا نفع من تمنعها ولذاك استسلمت لإرادة حماتها وقد فقدت إرادتها تماماً مع فقد حب زوجها. فالحياة أصبحت عبئاً ثقيلاً عليها لم تكن تجد واسطة للتخلص منه.

مضى على زواجها نحو عشرة أعوام فأدركت أن السعادة التي سكرت بها في الأشهر الأولى قد ذهبت ولا أمل برجوعها. عزيز لا يكاد يكلمها على الإطلاق، حتى ولا ينظر إليها. يقضي أكثر لياليه في السوق ويرجع بين المرة والأخرى أحمر العينين مع ازرقاق تحتهما. تتصاعد من فمه روائح العرق والنبيذ والجعة. أسنانه اكتست بغطاء أصفر كثيف. لون وجهه انقلب من الوردي إلى الرمادي. طرفا شاربيه هبطا إلى أسفل. لحيته لا ترى الموسى أحياناً في أسبوع.

وعندما يرجع عزيز إلى البيت يتحول البيت إلى مقبرة لا حركة ولا حياة فيها. لا يجسر أحد أن ينبس ببنت شفة. وإذا حدث وقال أو فعل أحد ما ليس على خاطره ـ سواء كان ذاك أباه أو أمه ـ يبدأ بشتائم الدين وتكسير كل ما تصل إليه يده من فرش وآنية. ومرة ضرب زوجته لأنها رفضت أن تذهب إلى الكنيسة وتلبس كل مجوهراتها.

كانت جميلة تراقب كل ذلك وقلبها يتفطر. وأبو عزيز وأم عزيز ينظران إليها كأنها سبب تعاسة وحيدهما، لذاك أبغضاها. وكم سمعتهما يتحدثان هكذا:

ـ ولدي، تقول أم عزيز، لقد ذاب من قهره. لا الله يطعمها ولا عزرائيل يقذفها عنه. لو ماتت لتزوج من بنت حلال سواها تأتيه بولد يعزي آخرتنا وآخرته.

فذاك الحنو الذي كانت تلاقيه جميلة من حماتها لم يبقَ له من أثر: إذا رأتها الآن تكنس وتغسل وتطبخ لا تصيح كالسابق: ويلي! ويليّ! ليتك تقبرين حماتك إن شاء الله!

الخادمة التي كانت استأجرتها لخدمة جميلة عادت إلى بيتها من زمان. جميلة تشتغل اليوم كثور في البيت وخارج البيت. وإذا جلست لتستريح تسمع للحال صوت حماتها: رجعنا نقعد؟ ما هذا الوقت وقت قعود!

الكل يشاركون عزيزاً في مصابه وبلواه وقل من في قلبه بعض الشفقة نحو جميلة. إذا خرجت من بيتها تخرج كل أم في البلدة تحمل رضيعاً حتى إذا اقتربت من جميلة خاطب طفلها هكذا: فؤاد! ـ أو بطرس أو حنا ـ صفق لخالتك جميلة يا بني صفق!... لتلحدني هاتان اليدان الحلوتان بجاه رب السماء!..

كل ذلك لتسمع جميلة ويدمي قلبها المجروح. وجميلة كانت تسمع ساكتة وتبكي ساكتة وتتمرمر نفسها من الحياة والعالم ساكتة. إذا مشت شعرت كأنها تمشي فوق أشلاء آمالها التي جندلتها

الأيام من حولها ، وإن نامت كأنّها نائمة على أنقاض سعادتها المتهدمة. ماذا بقي لها في هذه الدنيا ولماذا تعيش؟

ولكن هل ذوت كل آمالها على الإطلاق؟

إذن لماذا لا تزال تقول: "ربما! ربما منَّ الله عليَّ!.." لو منَّ الله عليها تُرى هل تعود إليها تلك السعادة المفقودة؟

عبثاً حاولت جميلة أن تجيب على هذه الأسئلة لأنها أصبحت غريبة عن نفسها. فالظلمة التي اكتنفت روحها لم تبقِ لها منفذاً لدرس خفاياها وأسرارها ، لذاك تعذر عليها أن تعطي حساباً لنفسها عن نفسها ، فوجدت الاستسلام للأيام أسهل طريق تسلكه، ولذاك لم تعارض إرادة حماتها لما أعلنت لها يوماً عن عزمها أن تذهب بها لزيارة دير قديم باسم العذراء تلهج النساء بعجائبه.

من قال أن زمان العجائب قد مرّ فليذهب إلى بلدة ع. من أعمال لبنان ويسأل عمّا جرى سنة 1910. امرأة بقيت عاقراً عشر سنوات، لم ينفعها علم الأطباء، ولا ساعدتها عقاقير المغاربة، ولا شفتها أديرة كثيرة لكن السيدة ـ المجد لاسمها ـ سمعت صلاة أم عزيز الكرباج الحارة.

نعم، لم تخب طلبات أم عزيز. فقد حملت جميلة في تلك السنة ، وما أسرع الانقلاب الذي حدث في البيت حالاً بل في كل البلدة! فعزيز عاد يناديها "قرقورتي" مع أن جميلة لم تعد تحب سماع هذا الاسم الذي كان يمزق قلبها كخنجر حاد ولم تعد تنادي زوجها "قرقوري".

وصار عزيز يرجع إلى البيت مساء وفي يديه وجيوبه جميع أنواع المأكولات الطيبة والهدايا الثمينة. الخادمة كذلك رجعت إلى بيت الكرباج. وأم عزيز عادت تهتف كلما رأت كنتها تمسح الغبار عن كرسي أو تحرك الطبيخ في قدر: "ويلي! ويلي! تقبري حماتك إن شاء الله!" وعاد ملاك السلام إلى بيت الكرباج. فترك عزيز السكر واكتفى بالنارجيلة فقط. وعادت الابتسامة إلى وجهه ورجع نور السعادة إلى عينيه. وأمه تقابل تهاني أهل البلدة بقلب طافح بالفرح وتذكّر كلاً منهم بأن لا فضل لها في ما جرى قائلة:

ـ السيدة، المجد لاسمها!

لم يلاحظ عزيز من شدة فرحه الانقلاب العجيب الذي حدث في زوجته. لم يلاحظ أن تلك الابتسامة الملائكية التي كانت تتلألأ على وجهها الوردي فيما سبق قد غابت الآن إلى الأبد تاركة مكانها علامة سؤال مبهم. لم يرَ أن تلك القوّة الكهربائية التي كانت تتسرب من عينيها الضاحكتين إلى أعماق قلبه فتملأه غبطة سماوية قد اختفت الآن وراء تلك الأهداب الطويلة التي تظهر كل دقيقة كأنها تستعد للبكاء والندب. لم يشعر بنغمة جديدة في صوتها، نغمة حزن عميق لا أول له ولا آخر. لم يرَ اصفرار وجهها ولا تقطب حاجبيها الدائم الذي ينمّ عن أوجاعها النفسانيّة. وإذا رأى بعض ذلك كان يحسبه طبيعياً في حال الحمل.

أمّا جميلة فكانت كأنها انسحبت من العالم الخارجي إلى داخل نفسها كما تنسحب البزاقة إلى صدفتها. وهناك انفردت نفسها بنفسها لأوّل مرة في حياتها، فاعتراها رعب عندما أخذت تحلل ذاتها

بذاتها وترفع الستار رويداً رويداً عن أشياء داخلية كانت تشعر بها ولا تعرف معناها. لأول مرّة في حياتها سألت نفسها ما عسى أن يعني كل هذا: صباها وشبابها وزواجها وظمأ روحها الدائم، وسعادة لم تكد تلمسها حتى تقلصت من بين يديها واختفت إلى الأبد، وأنين قلبها الذي لا يبطل، كأن حية تقرض أوصاله، وسياحاتها إلى بيروت والشام وزحلة، وزيارة الأديرة والنذور للقديسين وتقديم الصلوات؟ ما عسى أن يعني كل ذلك؟ أهذه هي الحياة؟ وإن كانت تلك هي الحياة فما غايتها منها؟ أأن تحمل وتلد عريساً لترضي زوجها وأهل زوجها؟ هي الآن حامل فلماذا لا تقنع، ولكن كيف حملت؟

تصل جميلة في أفكارها إلى هذا الحد ثم تعود إلى حيث بدأت.

كيفما انقلبت تشعر كأنها ماشية في دائرة مسحورة من الأفكار التي تتبعها كأشباح آمال ميّتة. وكم حاولت أن تفلت من تلك الدائرة ولم تقدر. كم حاولت أن تتخلص من نفسها وترجع لتنغمس برأسها في بحر الحياة الواسع، في حب زوجها وأمها وملاطفة حماتا وحميها، لكن بدون جدوى. قبلات زوجها أصبحت سمّاً يتفشى في كل جسدها، وملاطفة حماتها حراباً تقطع شرايين قلبها. أدركت أنها قد أصبحت كورقة قطعتها الرياح من شجرة وحملتها إلى محلات غريبة قصية. أدركت أنها غريبة في بيت زوجها وبيت أمها وكل بلدتها بل في العالم كله. وهذه الغربة الروحية كانت تضغط على وجدانها كل دقيقة وكل ثانية حتى سئمت الحياة وسئمت العالم.

***

كان العاشر من شهر أيار سنة 1911 يوماً من تلك الأيام الربيعية في لبنان التي يعرفها من عاش في الأماكن المرتفعة من ذاك الجبل، والتي لم يظهر إلى الآن قلم استطاع أن يفيها حقها من الوصف.

كانت الشمس تتخطّر على مهلها نحو المتوسط لما عاد عزيز الكرباج من شغله إلى البيت ولم يجد زوجته جالسة على الدرج حسب عادتها. سأل أمّه عنها فأجابت أنها ذهبت لتتنزّه منذ ساعة ولم ترجع!... ثمّ أضافت أنها قد تكون زارت في طريقها بعض الجيران.

لم يكتفِ عزيز بهذا التفسير لعلمه أن زوجته في المدة الأخيرة كانت تتجنّب الناس ومعاشرتهم كما تتجنّب الأفاعي والعقارب. لذاك دخل توّاً إلى مخدعها ليرى إذا كانت قد لبست ثوباً من ثياب الزيارة فتأكد أنّها في ثيابها البيتية. لكنه لم يشاهد هذه المرة ما تعوّد أن يراه في غرفتها من الترتيب والإتقان. وبينما هو يسأل نفسه أين عسى أن تكون "قرقورته" وقع نظره على ورقة مطوية على صفحة الرخام أمام المرآة. فأخذها و إذا فيها: "تجدني تحت السنديانة ــ جميلة".

قرأ عزيز تلك الكلمات وطار بسرعة البرق إلى السنديانة. وهو يعرف كل غصن من تلك الشجرة كما يعرف أصابع يديه العشر. هي السنديانة عينها التي كان يجلس تحتها مع جميلة في الأيام الماضية أيام سكرتهما بالحب الأول وسعادة الحياة الزوجية. هي سنديانة دهرية واقفة على ظهر ربوة يجري عند قدميها نبع ماء نقي عذب. حولها كثير من الأشجار المختلفة الأعمار، لكنها أقدم شجرة في ذلك الجوار بل في كل البلدة وجوارها.

وصل عزيز إلى السنديانة ووقف جامداً كمن أصيب بمس لا يدري أيبكي أم يضحك.

"قرقورة! قرقورة!" ـ أمامه زوجته على الأرض مضطجعة على جنبها الأيمن وعليها ثوب العرس، ذلك الثوب عينه الذي وقفت فيه بجانبه من مضي إحدى عشرة سنة أمام الخوري بولس. على رأسها إكليل من الأزهار. شعرها العقيقي مسدول على كتفها اليسرى، وضفيرة منه تطوق عنقها. وأصابعها تسند خدها الأيمن.

"جميلة! جميلة!" جميلة لا تجيب. فانحنى فوقها ولا يزال يخالج قلبه أمل ضعيف بأنها ربما كانت نائمة. أخذ رأسها بين يديه وللحال تراجع إلى الوراء وصرخ مذعوراً إذ وجد "القرقورة" جثة هامدة.

لما عاد إليه رشده واقترب منها ثانية لمح بين طيات ثوبها، فوق صدرها، رسمه ورسمها في ثياب الإكليل، ووجد بالقرب منها ورقة مطروحة على العشب كأنها حاولت أن تمزقها ولكن حال بينها وبين ذلك الموت، ففتح تلك الورقة بيد مرتجفة وهذا ما قرأ فيها:

"إلى قرقوري الحبيب الذي لا يثمن!".

"في مثل هذا اليوم ربطتنا المحبة بوثاق الزيجة. واليوم ـ بعد مضي إحدى عشرة سنة ـ يفصلنا الموت. فهل نلتقي بعد؟

"إذا صح ما يقولونه عن الحياة الآتية فسوف تجدني بانتظارك على عتبة العالم الثاني فاتحة ذراعي لاستقبالك ومهيئة شفتي لقبلتك. وسوف تسمع سؤالي مرة أخرى: كيف حالك يا قرقور؟

"آه يا عزيز، لو كنت الآن بجانبي! الآن، وأنا واقفة بحضرة الموت، أحب أن أشكر لك كل قبلة قبلتني إياها بحب وشوق، أود أن أشكر لك كل كلمة وكل حركة وكل لحظة حببت بها الحياة إلي. مرت بي دقائق جعلتني أنسى أن في العالم أوجاعاً وأحزاناً. وتلك الدقائق كانت من هدايا حبك، فأشكرك عليها يا عزيز! حلمت أحلاماً جعلتني أظن نفسي في السماء لا على الأرض، وتلك الأحلام كانت من نسمات حبك، فأشكرك عليها يا عزيز! ذقت طعم سعادة الفردوس. وتلك السعادة كانت من ثمرات حبك، فأشكرك عليها يا عزيز!

"أما أنا فماذا قدمت لك عوضاً؟ قدمت لك جسماً نقياً، جميلاً، طاهراً، وبالإجمال كرست لك ذاتي. وما ذنبي إذاً لم تواز تقدمتي عطاياك؟ أنت لم ترض بي وحدي، لم تكتف بجميلة "مجردة" وأنا قبلت بك وحدك دون بقية العالم. أنت كنت لي الكل بالكل. سعادتي تمت بك وبحبك، ولكن سعادتك لم تتم بحبي. أنت لم تظهر لي ذاتك في أول الأمر، ولكن الأيام كشفت لي ما كان مستوراً عن عيني. كنت أظنك سعيداً بحبي كما كنت سعيدة إلى النهاية بحبك فقط. وما أمر تلك الساعة التي أدركت فيها خطأي! أتذكر حديثنا عن "العريس"؟ أتذكر لما سألتك إذا كانت سعادتك غير تامة بلا أولاد؟ أتذكر جوابك لي؟ حاولت مع ذلك أن أخدع نفسي. حاولت أن أقنع ذاتي أن محبتك للأولاد كانت كمحبة بقية الرجال، وأن حبك إياي سيبقى كما كان سواء رزقنا الله "عريساً" أم لم يرزقنا. وما أمر الحقيقة التي كشفتها لي حوادث السنوات التي تلت ذلك!

"لما تأكدت أن لا رجاء مني لألد لك أولاداً نبذتني من حياتك كالنواة. ولم تكتف بذلك بل أبغضتني وكرهتني كأنني سم أفعى. بدأت بالتدخين ثم بالسكر ثم بشتمي وضربي. أتذكر لما ضربتني لأني رفضت أن أذهب إلى الكنيسة لابسة كل حلي؟ آه! ما ألذ تلك الضربات من يدك! قل لي بحقك أما كانت تدخل الشفقة قلبك عندما كنت تنظر إلي أسير في البيت كشبح أصم أخرس، أراقب كيف تهبط بناية سعادتي أمام عيني، وأرى نفسي غريبة كيفما توجهت؟ أنسيت أني لم أزل من لحم ودم مثلك، وأني لم أفقد رقة شعور النساء، هل قسوت إلى حد أن لم يبق في قلبك مكان للرقة على الإطلاق؟ آه كم مرة وددت في تلك الدقائق لو نظرت إلى أعماق نفسي كما كنت تنظر إلى خفاياها سابقاً بعينيك الخارقتين، ورأيت ما كان يجول فيها!

"أنت لا تعرف آلام الجرح في القلب. وأول جرح في قلبي نلته من يدك كان إدراكي أن حبك لي من البداية إلى النهاية لم يكن حباً لشخصي أنا، لم يكن حباً لي كإنسان مستقل بوجوده وكيانه في هذا العالم. أنت أحببتني كأم أولادك في المستقبل.

أحببتني كأنثى ستترك لك ذرية قبل أن تموت. ذاك عندك طبيعي. لكنه عندي أمر من الموت. لما كنت أفكر أن لا ثمن لي في عينيك بذاتي، أن لا قيمة لجسمي وروحي بين يديك إلا كآلة للتبذير، كنت أطلب الموت لنفسي".

"أنت لا تفهم ذلك. أنت إلى الآن لا تدرك أن المرأة إنسان ولها قيمة محصورة فيها ومستقلة عن أولادها. أنا وجدت فيك تتمة حياتي، لكن

تتمة حياتك لم تنحصر في بل تعدتني، وهذا ما كان يؤلمني ويجرح قلبي. أحببتك قبل الزيجة وأحببتك بعدها ولا أزال أحبك الآن. لم أبغضك إلا دقيقة واحدة فقط، لما رفعت يدك وضربتني، مع أنني أذكر ذلك الحادث الآن براحة ولذة وأشتهي لو كنت معي لتعيده".

"هل ظننت أني شاذة عن سنة الطبيعة؟ هل حسبت أني وأنا امرأة، أبغض الأولاد وإعالة الأولاد؟ آه لو تدري كم ليلة حلمت أن طفلاً على ذراعي! كنت أراه كذلك في اليقظة يمتص ثديي. وأسمع دقات قلبه الصغير وأرى يديه الصغيرتين تلعبان في الهواء.

كم مرة رأيته يدرج أمامي في الدار. كم مرة سمعته يناديني "ماما!".

"كم مرة جلست بقرب سريره الصغير وغنيت له لينام محدقة إلى وجهه الملائكي وعينيه السماويتين!.. لكنك كنت أعمى عن كل ذلك. كيف لا تفهم أني لو رفضت أن أضحي سعادتي، وهي حقيقة كائنة. لأجل أولاد لا يزالون في رحم المستقبل، أي لأجل ما ليس كائناً، لا أكون أعبر بذلك عن بغضي للأولاد؟ ألا يقول المثل: عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة؟

مع ذلك فقد سلمت نفسي لإرادتك كعبدة. حرمتني لذة الشغل في البيت خوفاً من كلام الناس، فرضيت. كرهتني لأنني لم ألد لك عريساً، فحملت نفسي فوق طاقاتها من زيارة الأطباء والقديسين والأديرة. أنت لا تدري كم ذرفت من الدموع في خلواتي وإبان سياحاتي. أنت لا تدري كيف كان يقطر قلبي دماً لما كنت أراك تهرب مني وتميل نظرك عني كأني هواء أصفر! أمك وأبوك كانا

يشتهيان أن يقذفني عزرائيل عنك لعلك تقدر أن تأخذ لك امرأة "ولادة". وها أنا أحذف نفسي من حياتك. فربما وجدت أحسن وأخصب مني".

"كنت متعلقة بوميض أمل ضعيف، كما يتعلق الغارق بقشة. حملت المضض والألم والذل والإهانة وأنا أقول: ربما.. ربما عدت فولدت لك عريساً بعجيبة من السماء. كنت أظن أني إذا حصلت على ذلك أسترجع خيال حبك السابق وسعادتنا الأولى. وشدة رغبتي في إرضائك واسترجاع حبك حملتني على اقتراف ذنب لو غفرته أنت لي فلا أغفره أنا لنفسي. سيفصلنا الموت عن قريب، فلماذا أخاف أن أطلعك عليه؟".

"أنا أحمل الآن في أحشائي روحاً صغيرة وجسماً صغيراً. هو الجنين الذي أعاد الابتسامة إلى وجهك والنور إلى عينيك. لكنه ليس من لحمك ودمك...".

"ضحيت عزة نفسي وطهارة جسمي لأحصل عليه إرضاء لخاطرك، لكنني أدركت الآن أن ما فعلته ذنب لا يغتفر. أنا لا أريد أن أشتري حبك بالخداع والزنى... لكنني لما زنيت، زنيت لأجلك فقط...".

"ها أنا أشعر بحركات هذا الطفل التعس بين ضلوعي. لكنها ستمهد عما قريب. ستقف دقات قلبه الصغير عندما تقف دقات قلب أمه الزانية. من هو أبوه؟ وهل يهمك أن تعرف ذلك أو هل يخفف ذاك من ذنبي؟".

"يكفيك أن تعرف أنه ليس ابنك، فربما يسرك حينئذ أنني أموت وأميته معي".

"ألا فاعلم يا عزيز أن العاقر أنت لا أنا".

"وأنا، مع ذلك، مجرمة في نظرك ونظر العالم، فهل قتلي لنفسي جريمة كذلك؟ أو لم أمت قبل الآن؟ ألم أكن ميتة كل هذه السنين التي تركتني فيها وحيدة غريبة كسيرة النفس والقلب؟ ومن هو قاتلي، ألست أنت؟ الآن لا مرد لما فات. إن عزيزاً الذي أحبته روحي أولاً راح ولن يرجع. فما غايتي بعد من الحياة؟".

"لماذا أتكلم عن كل هذه الأمور؟"

"بعد دقيقة تجمد هذه اليد وتضمحل هذه الأفكار وتسكت دقات هذا القلب إلى الأبد. ها الشمس تميل إلى المغيب وأنا أشتهي أن تفارقني الحياة قبل أن يفارق النور أغصان السنديانة. في السنديانة فوق رأسي جوق من عصافير الحسون. ما ألذ تغاريدها! ما أطيب خرير الساقية وحفيف أوراق السنديانة!".

"أتذكر لما كنا نأتي ونجلس هنا أول ما عرفنا الحب؟".

"آه لو كنت بجانبي الآن لأضمك ولو مرة إلى صدري قبل أن أودع هذا العالم! هنا ولدت محبتنا وهنا أدفنها معي".

"في يدي الآن رسمنا في ثياب الإكليل. ما كان أجملك وألطفك يا عزيز في ذاك النهار؟ ما أجمل شاربيك وما أعمق سحر عينيك وما ألذ نضارة وجهك! آه لو يعود عزيز صباي، عزيز حبي، عزيز حياتي وسعادتي!".

"ما كان ألذ الحياة معك يا عزيز! أشكرك. أشكرك. أشكرك على كل قطرة من السعادة التي ارتشفتها من ينبوع حبك، وأطلب منك صفحاً عن كل إساءة صدرت مني نحوك إن كان بالقول أو بالفعل أو بالفكر. أموت واسمك بين شفتي... هل يمكنك أن تدفن هذه الصورة معي؟.. أحب أن أنام نومتي الأخيرة مع رسم حبيبي عزيز الذي علقت به روحي من يوم أدركت معنى الحب... لا طلب لي إليك سوى أن تصفح عن هفواتي... ولا وصية لي عندك سوى أمي. أمي. أمي... حبيبتي أمي! ترى ماذا تفعلين بعد انحجاب جميلتك عنك إلى الأبد؟!"

إذا ذرفت على تربتي دمعة فقط... دمعة واحدة... أكون ممتنة لك حتى بعد القيامة... وداعاً يا قرقوري الحبيب! وداعاً يا قرقوري الذي لا يثمن. ـ قرقورتك: جميلة".

***

أخبرني صاحب من قرية عزيز الكرباج أنه رآه حديثاً في نيويورك، وسأله هل تزوج ثانية، فأجابه متنهداً وفي صوته غصة: "لا جميلة بعد جميلة!".

الذخيرة

بئست الساعة التي شككت فيها بقوة الخشبة!

بئست لأنها انتزعت مني سميراً يندر نظيره بين السمار. توطدت العلاقات الودية بيني وبين شاهين بطرس الجزيني في آخر الأسبوع الأول لعودته من البرازيل. وقد رغبت في التقرب إليه لعذوبة حديثه وطلاوة أقاصيصه. فلم يمض على تعارفنا شهران حتى أصبحت قادراً أن أقص عن البرازيل ما كان يدفع البعض إلى الظن بأني ولدت وقضيت قسماً طويلاً من حياتي فيها. لكنني كنت أضطر كلما دعاني أحد من السامعين إلى دعم قصتي ببرهان أن أحيل السائل إلى صديقي شاهين، وصديقي شاهين كان يدحض كل شكوك السامعين ببرهان قاطع لا يحتمل الرد والتأويل: "رأيت كذا وكذا بعيني" أو "سمعت كذا وكذا بأذني". فكان إذا أخبر عن الأفاعي التي تزدرد الثيران ـ مثلاً ـ يقص الحادثة عن نفسه وبلسان المتكلم هكذا:

ـ "كنت ماراً ذات يوم في حرج كثيف وإذا بثور بري واقف كالمسحور في منتصف الطريق التي كنت سائراً فيها. وبينا أنا أفكر في وسيلة للفرار منه سمعت نفخة كأنها من كور حداد. وإذا بالثور يهوي إلى الأرض بلا حراك. وهنا برزت من وراء شجرة أفعى كبيرة

سوداء، لو قلت لكم إن محيط دائرة جسمها يساوي استدارة سنديانة مار نقولا أو يزيد فصدقوني. أنزلت بندقيتي عن كتفي ووقفت مكاني أراقب حركاتها. اقتربت أولاً من رأس الثور وشرعت تلحسه بلسانها ثم انتقلت إلى رقبته ثم إلى ظهره وهكذا حتى لحست كل جسمه وأتت على آخر ذنبه. ولما انتهت من لحسه أخذت تبتلعه بادئة بالذنب. فتركتها ولم يبق من الثور خارج بطنها سوى قرنيه".

وقد لاحظت في مدة تقربي من شاهين أنه يشمئز من كل من يبدي أقل شك في صحة رواياته وأقاصيصه. لذلك كنت أتحاشى جهدي كل سؤال يشتم منه شك أو تكذيب. ومما أدهشني من أمره أن جراب أخباره كان بحراً بلا قاع حتى أنه لم يقص علي القصة مرتين، وكان كلما أنهى قصته ورأى الدهشة بادية على وجهي بادرني بقوله:

- "هذه بسيطة. عندي أغرب منها بكثير".

فيهيج أفكاري بترداد هذه العبارة. إلى أن جئته يوماً قاصداً أن لا أنصرف عنه حتى أسمع أغرب ما عنده من الأخبار. فجلسنا حسب عادتنا على مصطبة أمام بيته تظللها دالية من الكرم قد تدلت عناقيدها فوق رأسينا، وجيوش الزلاقط والزنابير تجول بين حباتها مهللة مدمدمة.

ولم تمض بضع دقائق حتى وجدتني قد انتقلت مع جليسي إلى آجام البرازيل أراقب عجائب المخلوقات وأرافق صديقي في رحلاته المحفوفة بالمخاطر. وخيل إلي أكثر من مرة أن الجالس بجانبي لم يكن شاهين بل شبحه. وكان كلما أتى على آخر حكاية رمقني

بنظرة من يعرف قيمة نفسه ويرتاح قلبه لعلامات الدهشة البادية على وجهي. أما أنا فكنت عند نهاية كل قصة أردد على طرف لساني سؤالاً أعددته قبل مجيئي، وهو: "هل هذه أغرب ما عندك"؟ وكأنه قرأ ما كان بفكري فأنهى قصة طويلة لم أصغ لتفاصيلها كل الإصغاء وبادرني بقوله:

ـ "هذه حادثة غريبة. إنما عندي أغرب منها بكثير. فهل تحب أن تسمع أغرب ما عندي؟".

وما كدت أجيبه "هات وأسمعنا" حتى رأيته قد أخذ يفك أزرار قميصه ثم يمد إلى تحت أبطه ويخرج من هنالك قطعة من الجلد الأسود مثلثة الزوايا معلقة بخيط أسود حول عنقه، فألقيت عليها نظرة ازدراء وأملت وجهي باسماً. لكن صاحبي لم يهتم لازدرائي وابتسامة الاستخفاف على وجهي، بل أخذ بيدي ومد قطعة الجلد إلى تحت أنفي قائلاً:

ـ "أتدري ما هذه؟ لو عرفت قوتها كما أعرفها أنا لما كنت تضحك. هذه "ذخيرة" من عود الصليب، الصليب الذي علق عليه السيد المسيح. لا تضحك، فأنا قد ضحكت قبلك، لكني لا أضحك الآن. أنا ـ وأنت تعرفني ـ أنا رجل عصري. قديسون وملائكة وشياطين وجنة وجهنم وآلهة وأنبياء ـ "حط بالخرج" ـ أنا عصري لا أعتقد بدين أو ديانة. وكما تراني لست من بسيطي القلب. لكنني أؤمن بهذه الخشبة".

فاحترت في أمري ولم أدر آآخذ كلامه مأخذ جد أم هزل. لذلك سكت وكأنه عرف ما دار في خلدي فتابع كلامه:

" ـ أنا لا أمزح. فهذه الخشبة هي ربي وإلهي الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين..." .

وإذا رأيته في موقف جد حاولت أن أقنعه ببراهين تاريخية وعقلية أن من البهتان أن تكون تلك الخشبة من الصليب الذي سمر عليه الناصري، وأنه إذا صح أن الصليب الذي وجدته القديسة هيلانة كان صليب المسيح الحقيقي فلا يعقل أن يسمح الذين ظفروا بتلك الجوهرة بعد هيلانة بتجزئتها إلى كسر صغيرة كالتي معه، وأننا إذا سلمنا بتحطيم ذاك الصليب فلا نقدر أن نسلم بأن رؤساء الديانة المسيحية في كل الأقطار قد تخلوا عن كسرة منه للعلمانيين، وأن الذين يحملون أمثال "ذخيرته" يعدون بالألوف، وأنه قد مضى على وجود الصليب أكثر من ألف وخمسمائة سنة، فمن أين له أن يبين أن القطعة التي معه هي من الصليب الحقيقي، إلى ما هنالك من البراهين التي كنت أحسبها كافية لدحض رأي كهذا. وأخيراً سألته إذا كان يؤمن بقوة صليب المسيح فلماذا لا يؤمن بالمسيح نفسه؟ فأجابني ببرودة خاطر عرقلت لساني وبلبلت أفكاري:

ـ "قد قلت لك إنني رجل عصري. وأنت تعرفني. فكيف أؤمن بالمسيح وعجائبه وكلها تخالف العقل الصحيح على خط مستقيم! أما هذه الخشبة فقد رأيت أفعالها بعيني وجربت قوتها بنفسي. فكيف أشك بها؟ أما أنها من صليب المسيح فالرجل الذي ابتعتها منه نفى من عقلي كل الشك في أمرها. هو يوناني الأصل. كان قبلاً كاهناً في القدس مقرباً من البطريرك. فأهدى إليه البطريرك هذه "الذخيرة" وليس مثلها في العالم كله سوى واحدة عند البطريرك المسكوني في

إسطنبول وأخرى في بطرسبورج وثالثة في كنيسة القيامة في القدس. وقد أراني حجة ناطقة تؤيد ذلك ولا تحتمل الشك. وعدا ذلك قد قلت لك إني شاهدت عجائبها بعيني. وقبل أن أدفع إلى اليوناني عشرين ليرة ثمنها جربتها بألف طريقة. يا حيف عليك! أتظنني من المغفلين؟ أقول لك إني لم أشترها حتى علقها اليوناني في عنقه وأعطاني بندقية مزدوجة فحشوتها بيدي هذه (وضرب يده اليمنى باليسرى) ثم وقف على بعد خمس خطوات مني وقال: "أطلق عياريك". فأطلقت العيارين واليوناني لم يصب بأذى على الإطلاق. نعم لم يخمش أقل خمش. حينئذ صدقت ما كان يقصه لي عن أنه أصيب بعشر رصاصات في الحرب ولم يجرح، وأنه قضى مرة في البحر يومين عندما تحطمت الباخرة التي كانت تقله فغرقت وغرق كل ركابها إلا هو لأن هذه "الذخيرة" كانت معلقة برقبته. أي. يا حيف عليك! ألا تعرف أنني من الذين "نزعوا الدبس عن الطحينة"؟ صاحبك شاهين ليس من البسطاء يا صاحبي.

"قصدت ذات ليلة ــ بعد أن علقت الذخيرة في عنقي ـ صديقاً لي ساكناً في مزرعة بعيدة من المدينة. وكانت طريقي بين الأحراج. امتطيت صهوة فرسي وأطلقت له العنان. وبينما أنا في منتصف الطريق بين أدغال كثيفة قائمة إلى الجانبين وإذا بفرسي وقف وشخر ثم ارتجف كالقصبة. نظرت إلى أمامي فإذا بنقطتين تبرقان في الظلمة، فعرفت على الفور أن أمامي نمراً يتحفز للوثوب علي. وما هي إلا لحظة حتى سمعت دوي الرصاص ورأيت النمر قد ارتفع في الفضاء ثم انطرح بين الأدغال ميتاً. ولم أكد أغبط نفسي على خلاصي منه حتى

أدركت أني بين زمرة من العبيد اللصوص الذين بعد أن قتلوا النمر انهالوا علي بوابل من الرصاص. فأعملت المهماز في خاصرة الجواد، وشعرت قبل أن أنجو بنفسي برصاصة أصابت فخذي وأخرى رأسي وثالثة ظهري وكلها كانت ترجع عني كأنها أصابت صفيحة من الفولاذ. وقد وجدت في اليوم التالي رصاصتين في السرج وهما لا تزالان عندي. هذا بسيط! وقد حدث لي أغرب من ذلك عندما احترق البيت الذي كنت أسكنه فذهب وكل من فيه ضحية النار وبقيت أنا وحدي سليماً. وهذا بسيط أيضاً، وقد حدث لي أغرب منه بكثير مما يشيب الأطفال. وسأقص عليك بعضاً منه فيما بعد".

لا أدري من أين أتتني الجسارة على أن أقول لصاحبي شاهين بعد أن أصغيت أكثر من ساعتين لأقاصيصه إني - مع كل اعتباري إياه - لا أزال أشك بقوة خشبته. ولما شرعت أسأله هل فحص بنفسه الخرطوش الذي ناوله إياه اليوناني ليضعه في البندقية عندما جعل نفسه هدفاً للنار نظرت إلى وجهه فإذا به قد جمد كقطعة من حديد وجحظت عيناه ثم صاح فجأة بأعلى صوته منادياً ابنه الوحيد الذي لم يبلغ بعد الخامسة من عمره:

"الفريدو! الفريدو!"

ولما لم يجبه ألفريدو وثب قائماً وهرول نحو البيت، وبعد هنيهة خرج وهو يحمل في إحدى يديه بندقية وبالأخرى يجر الفريدو الصغير الذي تبع أباه صاغراً وعلى يده قطة بيضاء حريرية الصوف يقبلها تارة وطوراً يداعب رأسها بيده، أما أنا فبقيت جالساً كمن أصيب بمس لا أدري ما عسى أن يعني كل ذلك المشهد؛ وشاهين لم يتنازل بعد ذلك

أن يبادلني كلمة واحدة كأنني حجر ملقى على المصطبة لا صاحب له. لكن منظر الصبي الصغير وقطته والحنو الذي كان يبديه نحوها مع بعض الدهشة البادية على وجهه من معاملة أبيه حولت أفكاري عن شاهين قليلاً فلم أدرك كنه قصده حتى رأيته قد أوقف الصبي على طرف المصطبة ثم نزع الذخيرة من رقبته وعلقها برقبة ابنه آمراً إياه ألا يتحرك من مكانه. ثم تراجع بضع خطوات إلى طرف المصطبة الآخر والبندقية في يده. ثم رفعها إلى كتفه فلم أصدق عيني إذ رأيته يصوبها نحو ابنه. فوثبت كالمجنون غير آمل أن أصل إلى يده قبل أن يتم القدر الرهيب. واصطكت رجلاي وانقطع نفسي وارتجفت يداي. لكني تمكنت من أن أدرأ الخطر وأن أخلص الطفل من الموت. تمكنت من أن أميل يد صاحبي قبل فوات الوقت فدوى العيار في الفضاء وذعر الصبي وأجهش بالبكاء.

فهرولت الأم بقلب متقطع من داخل البيت ولم تصدق أن وحيدها لم يزل حياً حتى رفعته بيديها وضمته إلى صدرها ونشفت دموعه شفتيها، ولما سكن روعها هجمت نحو زوجها وطفقت تصب عليه اللعنة بعد اللعنة والشتيمة إثر الشتيمة. ومن الغرابة أنه لم ينبس ببنت شفة بل نزع الذخيرة بهدوء من عنق ابنه ثم صبر حتى عادت زوجته مع ابنها إلى داخل البيت وعاد فالتقط القطة التي كانت قد أفلتت من يد ابنه وعلق الذخيرة في عنقها ثم أخذها وربطها حيث كان قد أوقف ابنه منذ دقائق، وتراجع إلى الوراء دون أن يتكرم علي بكلمة ورفع البندقية ثانية إلى كتفه وأطلق عياره قبل أن أتمكن من أن أشفع لديه بتلك القطة الجميلة المسكينة التي لم يبق منها في لحظة سوى أمعاء

ممزقة وكتل من الصوف مبعثرة وبركة دم صغيرة في المحل الذي كانت مربوطة فيه.

ونظرت في تلك الدقيقة إلى صديقي شاهين فإذا بلونه قد امتقع وبعينيه قد جمدتا ثم رأيته قد رفع البندقية في يده وطرحها عنه إلى بعيد بحنق كلي ووقف بعد ذلك هنيهة مكانه ثم مر من أمامي بخطوات مسرعة فلم أجسر أن أسأله إلى أين؟ بل وجدت من الحكمة أن أعود إلى بيتي ساكتاً.

كنت بعد ذلك الحادث بأسبوع ذاهباً ذات ليلة إلى غابة الحور على شاطئ الساقية لأتخلص من وطأة الحر وأسامر الضفادع بعد أن حرمني صاحبي شاهين من لذة مسامرته، فرأيت في ضوء القمر رجلاً جالساً على حافة بركة في الساقية يرمي فيها حجارة. ثم رأيته ينزع من عنقه قلادة ويربط بها حجراً ويطرح الحجر في البركة متمتماً. وإذ أحس بوقع قدمي نهض حالاً فعرفت فيه صاحبي وسميري وشعرت بقوة تدفعني إليه لأرتمي على عنقه وأطوقه بيدي وألثم أنامله وأسأله الصفح عن كل ما سببته له من المساوئ وأعبر له عن حاجتي القصوى إليه وشوقي إلى تجديد العلاقات الودية بيننا. لكنه مر كطيف من أمام دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. وقبل أن أجد في نفسي قوة لأحرك لساني غاب خياله عن عيني وابتلعت السكينة وقع خطاه البعيد على أوراق الحور اليابسة.

1917

سَعَادة "البيك"

كنت مع رفيق لي في مطعم سوري نتناول طعام العشاء، وكانت الساعة بعد التاسعة والمحل قد فرغ من الزائرين. فجاء صاحبه وجلس معنا ليساعدنا بأقاصيصه الغريبة على ازدراد مطبوخاته وهضمها. وهو رجل لطيف المعشر يتودد إلينا ويغالي في إرضائنا لأننا عنده من الزبائن "المكفولين". فقال رفيقي لجليسنا ناظراً إلى ساعته:

ـ لقد جئناك متأخرين هذه الليلة يا أبا عساف، وأخاف أنك تستعد لتقفل مطعمك وتعود إلى بيتك فلا تتأخر من أجلنا.

فهز أبو عساف برأسه يميناً وشمالاً وأقسم لنا بحياة عساف أنه يحسب الجلوس معنا شرفاً وأنه من أجل خاطرنا يفتح مطعمه حتى نصف الليل، وأنه هو والمطعم على "حسابنا". وأضاف أنه قلما يقفل بابه قبل الساعة العاشرة لأن "البيك" لا يأتي حتى الساعة التاسعة والنصف.

فبادرناه بالسؤال سوية بفم واحد: من هو "البيك" يا أبا عساف؟

وكأننا بسؤالنا جدفنا على الأنبياء والقديسين الذين يعبدهم أبو عساف أكثر من ربه وأنكرنا وجود العزة الإلهية أو قلنا أننا وجدنا في الشورباء خنفساء. إذ جحظ أبو عساف وقال كمن لا يصدق أذنيه:

ـ أحقاً لا تعرفان البيك أم أنتما تمزحان؟ إذاً من تعرفان؟ وقبل أن يتغلب أبو عساف على دهشته من جهلنا المطبق إذا بالباب ينفتح ويدخل منه رجل طويل القامة منتصبها ضيق الكتفين مندلق الكرش، طويل اليدين والأصابع. في يده اليمنى عصا كذنب الكلب. وفي اليسرى جريدة عربية. وعليه بذلة نصفها الأسفل رمادي ونصفها الأعلى بني وكلها قد نهش الاستعمال أطرافها فتدلت خيطانها بين طويل وقصير. أما وجهه فلم أر منه لأول وهلة سوى شاربيه الكثيفين الملاصقين لطرف أذنيه، وأنفه المنتفخ كالكوز، وبشرته الحادة السمرة.

ومشى الزائر بخطوات ثابتة متثاقلة إلى آخر المطعم، وهناك ألقى عصاه وبرنيطته على طرف الطاولة وجلس يطالع جريدته. فتفرست فيه ملياً إذ رأيت في حركاته ولباسه من الغرابة ما زاد في شوقي لدرس ملامحه، ومن أغرب ما استلفت نظري فيه شكل رأسه الذي يشبه رأس الصنوبر، وحجم أذنيه المسطحتين اللاصقتين بجمجمته كقطعتين من العجين، وشعره القصير الذي يبدأ فوق حاجبيه بقيراطين.

ـ يا أبو عساف هات لنا كوسى مع الورق وكروش بحمص وحمص بطحينة، وشوية بطيخ!

قال زائرنا ذلك دون أن يرفع عينيه عن الجريدة بصوت تعود منذ نعومة أظفاره أن يأمر وأن لا يرد له أمر. وكان أبو عساف مذ رآه

داخلاً قد أسرع إلى المطبخ فأعد له بلحظة كل ما طلب وقدمه إليه بكل هيبة واحترام دون أن يفوه بكلمة كأن زائره جبار من الجبابرة أو ملك من الملوك. وهكذا بقي أبو عساف يأتي بصحون ويأخذ صحوناً إلى أن انتهى الزائر من أكله فنهض ووضع برنيطته على رأسه وأخذ عصاه بيدٍ وجريدته بأخرى وخرج مثلما دخل بخطوات ثابتة بطيئة ودون أن يلتفت يمنة أو يسرة أو أن يدفع لأبي عساف فلساً واحداً.

وما هي إلا هنيهة حتى عاد أبو عساف إلينا يعتذر عن إهماله لنا مدة وجود الزائر الثالث في المطعم وذلك بلهجة غريبة كأنه كان أخرس وانطلق لسانه. وقبل أن نبادله كلمة واحدة قال:

- هذا هو البيك. أرأيتماه؟

فسألناه عن اسمه وشأنه فقال:

- اسمه أسعد الدعواق وهو من بلدتنا في لبنان وآخر مشايخ بيت الدعواق الذين حكموا بلدتنا زماناً طويلاً، فكانوا مطلقي الإرادة وكان أهل البلدة عندهم كعبيد لا يملكون من الأرض التي يحرثونها فتراً. فجار الدهر عليهم بعد حين كما جار على الكثير من الأمراء والمشايخ سواهم. وحدث أن البعض ممن كانوا عندهم قبلاً مرابعين هاجر إلى أميركا وعاد بالمال فاشترى قسماً كبيراً من الأرض التي كانت ملكاً لبيت الدعواق. وأخذ هذا البيت ينقرض جيلاً بعد جيل حتى لم يبق منه إلا الشيخ أسعد ولم يبق للشيخ أسعد من عز أجداده إلا اسم المشيخة وديون لا تحصى.

ثم حدث كذلك أن واحداً من أبناء البلدة ومن خدام الشيخ أسعد سابقاً حصل في أميركا ثورة كبيرة فعاد إلى الوطن وبنى له قصراً فخماً وابتاع لنفسه لقب "بيك" وأنتما تعلمان كيف كانت تشترى وتباع هذه الألقاب عندنا.

وكان الشيخ أسعد حتى ذاك الوقت راضياً بحاله، قانعاً بما قسم له، مكتفياً بأنه لا يزال شيخ البلدة، ووجيهها دون معارض أو مزاحم. أما بعد أن أصبح في البلدة بيك فلم يعد يهنأ للشيخ مقام.

وكيف يقبل ابن الدعواق على نفسه أن يكون في بلدته من هو أرفع منه رتبة؟

والأنكى من ذلك كله أن يكون هذا البيك من بعض خدام الشيخ سابقاً. الموت ولا الصبر على هذه الإهانة! فانقلب الشيخ بغتة كأن يداً خفية اختلسته وجاءت بسواه. فلم يعد يزور الكنيسة وكان لا يفوته أحد ولا عيد. وحتم على زوجته أن لا تخرج من البيت. وسحب أولاده من المدرسة واقفل أبواب بيته للناس فلم يعد يقبل زائراً.

وصار إذا مشى في الشارع لا ينظر يمنة ولا يسرى. وإذا ألْقى عليه العابرون السلام لا يرد لهم سلاماً. وإذا اتفق والتقى بالبيك في الطريق شمخ بأنفه وفتل شاربيه وبرم عصاه في يده وتنحنح وتفل على الأرض كمن يتفل على الشيطان.

فحار أهل البلدة في أمره وكثرت أقاويلهم وتآويلهم. فمنهم من قال أن الشيخ فقد عقله لأن كل خطايا بيت الدعواق ومظالمهم قد تعلقت بعنقه كحجر رحى. ومنهم من قال إنه لم يعد يقوى على

معاشرة الناس بعد أن تقلص كل عز أجداده وامحى. ومنهم من ظن أن الشيخ صار يخجل من مقابلة الناس لكثرة ما عليه من الديون، وأنه لا يقبل الزائرين إذ ليس عنده ما يقدمه إليهم من واجبات الحفاوة وإكرام الضيف.

وهكذا بقيت البلدة في قيل وقال إلى أن شاع الخبر عن أن الشيخ قد اختطفته جنية، إذ مر نحو أسبوع ولم ير له أحد وجهاً. فقامت البلدة وقعدت واجتمع الشيوخ برئاسة الكاهن لينظروا في هذه المسألة الخطيرة ويروا كيف يخلصون الشيخ من يد الجنية أو كيف يتخلصون من بقية نسل الشيخ ليدرأوا عن البلدة خطر الجان.

وبينما هم في أخذ ورد وقد استحوذ عليهم الذعر والكاهن يبين لهم أن من الضرورة أن يدخلوا بيت الشيخ بالقوة ليرشوه بالماء المقدس وأن يبعدوا أولاده وزوجته عن البلدة خوفاً من أن تمتد بواسطتهم سلطة الجان على البلدة كلها، إذا بالشيخ يدخل عليهم فجأة. فجمدوا لحظة كالمسمرين في أماكنهم. ثم هبوا كرجل واحد واقفين. وهكذا وقفوا بضع دقائق كالأصنام دون أن يحرك أحدهم شفة، والرعب قد أخذ منهم كل مأخذ. وأخيراً تجرأ الكاهن فقال بصوت مرتجف بعد أن رسم علامة الصليب على وجهه:

ـ أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً بالشيخ أسعد!

فقاطعه الشيخ مفتلاً شاربيه:

ـ سعادتلو أسعد بك الدعواق يا بونا، سعادتلو أسعد بك. الشيخ أسعد مات وقام اليوم مكانه سعادتلو أسعد بك!

بقي جرس الكنيسة يقرع تلك الليلة نحو الساعة مبشراً السكان بأن شيخهم قد أصبح "بيك". وانتشر الخبر كالبرق في البلدة أن الشيخ أسعد قد غاب كل تلك المدة إذ دعاه المتصرف إليه ليعلنه حصوله على البكوية. فقامت البلدة تحرق ما عندها من البترول والهشيم، وقام "الدبك" ودار التهليل "يا بيكنا!" ولآخر مرة في تاريخ بيت الدعواق عادت دارهم فاكتظت بالجماهير، وعادت الأنوار تتلألأ من شرفاتها، وعاد الشبان والفتيات فأحاطوا بها بين مهللين ومنشدين ومزغردين والكل معتقد أن عز بيت الدعواق قد أخذ يتجدد وربما فاق عز الأجيال السالفة.

وكان أول ما فعله الشيخ أسعد بعد أن أصبح "سعادتلو" أنه أطلق سراح امرأته وأعاد أولاده إلى المدرسة بعد أن أوصى المعلم أن يجلسهم في رأس الصف لأنهم أولاد "البيك" وألا يخطر له ببال أن يجلس أولاد "البيك" الآخر فوقهم، وعاد فأبرم صلحاً مع الله وجدد زياراته للكنيسة.

ومن شدة غيرته على شرف رتبته الجديدة رفض كتاباً جاءه بعنوان: "رفعتلو أسعد بك الدعواق" ومن ذلك الحين أنذر مأمور البريد في القرية أنه لا يقبل كتاباً باسمه إلا إذا كان معنوناً "سعادتلو أسعد بك".

أما زوجته فلم يعد يشير إليها أمام الناس باسمها ولا باسم بكرها، بل بلقب "البيكة" فيقول: "البيكة في البيت" و"البيكة لا تستقبل اليوم ضيوفاً" ويمتعض إذا ذكرها أحد أمامه ولم يذكر لقبها.

وهنا يجب أن أرجع بكما إلى البيك الأول، ذاك الذي كان خادماً عند الشيخ أسعد وهاجر وحصل على ثروة وعاد وابتاع لقب بك قبل أن يناله الشيخ. هذا الرجل واسمه "روكس نصور" كانت في قلبه ضغينة ضد الشيخ إذ كان قد طلب منه يد ابنته فاشتعل الشيخ غيظاً وطرده من بيته وأمره ألا يعود ويطأ عتبته وألا ينسى أنه كان خادماً، وكيف للخدام أن يجسروا على طلب بنات الأسياد؟ فخرج روكس نصور من عند الشيخ وقد اضمر له السوء. فرأى أن يطعنه طعنة نجلاء في نقطة حساسة من حياته ألا وهو اعتزازه بأجداده وفخره بأنه لا يزال في مقدمة كل أهل البلدة رتبة ومقاماً. فراح وابتاع لذاته لقب بك وظن أنه قد سحق خصمه إلى الأبد. غير أنه ما طال أن شاع خبر الشيخ وسفرته إلى مركز المتصرفية ورجوعه من هناك مع البكوية. فما الحيلة بعد ذلك؟

بقي روكس نصور يبحث عن وسيلة للانتقام من خصمه إلى أن خطر له يوماً فكر جديد وهو: من أين جاء الشيخ بالمال ليشتري البكوية وروكس يعرف أنه يأكل بالدين ويشرب بالدين وأنه قد رهن من زمان كل ما فوقه وتحته؟

وهذا الفكر قاده إلى مركز المتصرفية وهناك بحث واستقصى فلم يجد من يعرف الشيخ ولا من سمع به، وأكد من بينات كثيرة أن الشيخ لا زار مركز المتصرفية ولا نال بكوية، بل اختلق ذاك اختلاقاً ليحارب خصمه بسلاحه. وانطلت الحيلة على أهل البلدة لأنهم سذج ولأن اسم الدعواق عندهم يعني القوة والسؤدد والعظمة.

ما عاد روكس نصور باكتشافه الجديد حتى انتشر الخبر بلمحة طرف من بيت إلى بيت عن أن "سعادتلو أسعد بك الدعواق" لم يكن سعادتلو على الإطلاق، وأنه لا يزال الشيخ أسعد "حاف". وفي ذلك اليوم عينه غادر الشيخ البلدة وانقطعت أخباره.

وراح زمان وجاء زمان. وهاجرت أنا إلى أميركا وفتحت مطعماً في نيويورك.وحدث ذات ليلة أن سمعت ثلاثة من زبائني يتحدثون عن "سعادة البيك" فقال واحد منهم أنه رآه في حديقة عمومية بعيدة عن المنطقة السورية يمسح أحذية. وقال آخر أنه يبيع جرائد في الشارع. وقال ثالث أنه وجده ليلة في محطة من محطات قطار النفق نائماً على مقعد من المقاعد هناك. فسألتهم من هو ذاك "البيك" الذي يتحدثون عنه. فقالوا إنه سوري يدعو نفسه أسعد بك الدعواق ويقاتل كل من يجسر أن يدعوه باسمه دون لقبه. فلم يبق عندي شك أن الشيخ أسعد في نيويورك. وأصبحت في شوق لألتقي به. وما هي إلا بضعة أيام حتى رأيته داخلاً من تلقاء نفسه.

جاء في ليلة لم يكن عندي فيها أحد. وكانت الساعة نحو التاسعة والنصف. فعرفته للحال وعرفت أنه عرفني وأسرعت لمصافحته والسلام عليه. فلم يمد إلي يداً ولا سألني عن حالي. لا حياً ولا سلم الله. ولما زلق لساني وقلت له أهلاً وسهلاً بالشيخ أسعد رمقني شزراً وكاد يأكلني بعينيه وقال: "أسعد بك يا بو عساف، أسعد بك!" وسار تواً إلى طاولة وجلس وطلب طعاماً فقدمت إليه كل ما طلب وأكثر وحاولت مراراً أن أحدثه فلم يحدثني. وعندما أكل وشبع قام وقال: "قيدهم على الحساب يا بو عساف". وانصرف.

لقد مر على تلك الحادثة نحو السبع سنين، وهو من ذلك الحين لا يزال يزورني كل ليلة في عين الساعة التي زارني فيها لأول مرة وعلى الحالة عينها. يأتي مثلما رأيتماه الليلة: بيده عصا وجريدة يتظاهر أنه يطالعها وأنا أعرف أنه لا يحسن القراءة ولا الكتابة. ثم يأكل وينصرف ولا يدفع فلساً وأنا أقول: "صحتين وإكراماً لوجه الله".

فقلبي لا يطيعني أن أكسر خاطره. حرام. ما هو إلا من بيت الدعواق، وقد عرضت عليه مالاً غير مرة فلم يقبل ولا بارة. مسكين"!

وتنهد محدثنا تنهدة خرجت من أعماق قلبه.

1919

شُورتي[1]

من مذكرات جندي مجهول

فرنسا: أيلول سنة 1918

الجمعة:

رفاقي يضحكون مني وأنا أضحك من رفاقي. هم يضحكون مني لغرابة أطواري. وأنا أضحك منهم لغرابة أطوارهم. غير أني أضحك اليوم من نفسي إذ أراني قد تخلقت ببعض أخلاقهم. والمثل يقول: عاشر القوم أربعين يوماً فإما تصبح منهم أو ترحل عنهم. فقد أصبحت منهم إذ لا سبيل للرحيل عنهم. وإلى أين يهرب الجندي من جنديته؟

السبت:

من الفرح ما يكدر ومن الكدر ما يفرح، فقد فرحت اليوم لانتقالي من الثكنة إلى المستشفى وليس مرضي بالعضال. فقد ألم بي ما يدعوه رفاقي "الحكاك الفرنساوي" وثلاثة أرباعهم مصابون به. لكنه قد حل بي بدرجة قوية حتى خدشت أظفاري جلدي تخديشاً.

---

[1] معنى هذه الكلمة الحرفي "قصير" بضم القا وتشديد الياء، وهي تستعمل للتحبب، على حد ما تقول العامة في لبنان "قُصَيْرَانِي".

فلما جرى عندنا اليوم الفحص الطبي حسب العادة رق الطبيب لحالتي فأمرني أن أذهب إلى المستشفى ليعالجني معالجة خاصة. يقولون أن سبب هذا الحكاك حشرات مكروسكوبية تصعد من أرض المستنقع حيث معسكرنا وتتغلغل في الجلد فتحدث الحكاك حتى يصبح المصاب به كالجَرِب. يحك موضعاً من جسمه فلا يهدأ هياجه حتى يبدأ بحك موضع آخر.

أنا الآن في مستشفى الأمراض الجلدية. عندي طاولة صغيرة أكتب عليها. وسرير عليه ملاءات مقصور بيضاء ولحاف ثقيل من الصوف. سأنام الليلة ملء أجفاني فلا يوقظني في منتصف الليل الشاويش قائلاً لي أن قد جاء دوري للحراسة. ولا أقضي تحت المطر نصف ليلي حاملاً بندقيتي على كتفي، أعد خطواتي وأصغي لوقع مسامير حذائي على الحصى. وهذا ما يفرحني: سرير ناعم وملاءات كالثلج ولحاف دافئ ونوم هنيء ولا شغل في الغد. وهذا الفرح عينه يكدرني لأنه يريني الفرق بين اليوم وفي الأمس. فما أصدق أني أنا الذي كان يفترش الأخشاب ويتوسد الكتب ويلتحف السقف ويسهر الليل مسامراً نفسه مستفسراً أسرارها سعيداً بوحدته مكتفياً بذاته. وأن ذلك الرجل الذي كنته في الأمس هو عين الرجل الذي يسر اليوم بفراش ناعم كما يسر الولد بألعوبة جديدة نافراً من وحدته مبتعداً عن نفسه. فأحن إلى الأول واحتقر الثاني. لذلك أقول أن من الفرح ما يكدر.

عندما دخلت المستشفى اشرأب نحوي كل من كان فيه. وبعضهم كان يلعب بالورق. والبعض مستلقياً على الأسرة يغزل أفكاراً بأفكار.

فأعرضوا عن لهوهم وأحاطوا بي كالحلقة مؤهلين "بالأخ الجديد" وأنا أحسبهم كلهم مصابين بداء الحكاك مثلي. ثم قال واحد منهم:

ـ لا شك في أنك مثلنا ضحية "الغازات الخردلية". وكنت قد سمعت بأن الغازات الخردلية هي من أكثر الغازات سماً تحرق كل ما تتصل به. وحرقها لا يكاد يشفى وآلامها مرة. فأشفقت على رفاقي إذا كانوا كما يدعون مصابين بها. وأجبت سائلي أن مرضي لم يكن إلا من أمراض الجلد البسيطة. فالتفت كل منهم إلى الآخر التفاتة شك وهزء وضحكوا وأنا واقف بينهم "كالمسطول" لا أدري لماذا يضحكون. فقال أحدهم: ولم التستر يا هذا؟ انظر، ها نحن عشرة، والعشرة مصابون بالغازات الخردلية ولا نستحي من ذلك. فلماذا تأتينا أنت بهذا "الكموفلاج" أمراض جلد؟... كأننا لم نسمع سواك من قبل يستتر بهذه الأعاذير!

فأجبته والحيرة قد أخذت مني كل مأخذ، والغازات الخردلية قد أضحت عندي لغزاً من ألغاز الكون: قلت لكم يا إخوان إن مرضي من أمراض الجلد البسيطة. فهو ليس إلا "حكاكاً فرنساوياً". لو كنت محروقاً بالغازات الخردلية مثلكم لكنت أحسب ذاك شرفاً وأجاهر به بدلاً من أن أستره!

فقهقه الجميع مرددين "حكاك فرنساوي! حكاك فرنساوي!" وتفرقوا عني مقهقهين وأنا في حيرتي كمن أصيب بمس.

***

الأحد:

بين رفاقي في المدرسة واحد يدعونه "شورتي" لأنه قصير القامة. لا تفارق الابتسامة وجهه ولا يكل له لسان. ومن الغريب أن السامع لا يمل من كلامه بخلاف كل من أعرفهم من الثرثارين. ففي كلامه خفة ولو خالطتها بذاءة. وبذاءته لا تخدش الأذن ولا تمتعض منها النفس. وإذا شتم ففي شتيمته عفة. وإن مزح ففي مزاحه نكتة. وإن قام بحركة ففي حركته عياقة. فكيفما انقلب ومهما قال يستدعي استحسان الجميع فيقهقهون تارة ويصفقون أخرى. ولولاه لكان هذا المستشفى مقبرة وهذه الأسرة لحوداً. وهو الذي لقبني "بالحكاك الفرنساوي" ولم يسألني عن اسمي. غير أنه إذا ناداني بهذا اللقب ففي ندائه تودد لا احتقار. أما الآخرون فيقصدون به تحقيري وإغاظتي بالتهكم علي. ولا يدرون أن نفسي أرفع من أن يطالها تهكمهم.

***

الاثنين:

رأيت في حياتي كثيراً من الناس. غير أني مثل "شورتي" لم أرَ هو قبيح المنظر، أفطس الأنف، واسع الشدق، غليظ الشفتين، نافر الوجنتين، ممتقع البشرة، شعره طويل قاس منتصب على رأسه كأنه مسلات القنفذ، وكأن بين الشعرة والشعرة ثأراً فلا تلتصق الواحدة بالأخرى. أذناه صغيرتان لا تكادان تظهران من تحت الشعر، وكذلك عيناه، لكن بهما جاذبية غريبة تنسل من بين أهدابهما الكثيفة. ولست أدري ما الذي يحببه إلى رفاقه، أقبح منظره أم الجاذبية في عينيه. فلا شك في أن الجميع يحبونه. إذا غاب سكتوا أو انصرفوا كل إلى لعب الورق أو الزهر. ومتى حضر التفوا حواليه كالحلقة وارتفع ضحكهم وازداد هرجهم ومرجهم. كلهم يتودد إليه واسمه على ألسنة الجميع فلا تسمع إلا من ينادي: شورتي! للّه درك! فلولاك لكنا نموت ضجراً. شورتي! قص علينا هذه القصة أو تلك. شورتي! ما رأيك في هذه المسألة أو في ذلك الأمر؟.

فهو فيلسوفهم وشاعرهم و"مهرجهم" في وقت واحد. ولقد سمعته يبدي آراءه في أمور كثيرة من السخيف المضحك إلى الجليل المبكي. ومن الغرابة أنه سواء أحدث عن الحكاك الفرنساوي أم عن الحياة بعد الموت فسامعوه يقهقهون حتى الغصة. أما هو فضحكته لا تتجاوز الابتسامة.

كثيراً ما يجتمع رفاقي ويأخذون بتبادل اختباراتهم الحربية. ذاك يقص عما جرى له في معركة "شاتوتيري" والآخر عما لاقاه في موقعه "سان ميهيل" والثالث عما شاهده في معركة "سواسون" وهلم جرا. أما

شورتي فلم أسمع منه حتى الآن كلمة عن المعارك التي خاضها مع أني عرفت من وكيل المستشفى أنه حائز على ميدالية "صليب الحرب" الفرنسية وأن اسمه قد رفع إلى وزارة الحربية الأمريكية لتعطي له مدالية "الخدمة الممتازة". وقد سمعت واحداً يسأله مرة رأيه في الحرب، وآخر نظره في "البوش" فتظاهر كأنه لم يسمع السؤال وغير مجرى الحديث.

***

الثلاثاء:

البارحة مساء بعد أن زارنا الطبيب وانصرف مشى شورتي وراءه حتى الباب.

ثم عاد بعد دقيقة وسأل بصوت عال: يا شبان هل على بالكم قليل من الوسكي؟

فضحك الجميع ظناً منهم أنه قد جاءهم بنكتة جديدة. وربما صدق أحدهم بنزول ملاك من السماء على الأرض قبل أن يصدق بوجود وسكي في المستشفى.

غير أن ضحكهم لم يكن ليسكت شورتي فأعاد الكرة قائلاً: دعوا المزح جانباً، فإذا ما جئتكم الليلة بوسكي فإني والله سآتيكم بابنة عمها، فما قولكم؟

فأجاب القوم مداعبة وهم لا يصدقون أن في كلام شورتي شيئاً من الجد: هات لنا ابنة عمها فحلاقيمنا قد جفت من العطش!

وللحال غاب شورتي لحظة وعاد بزجاجة كبيرة فيها سائل أبيض ونادى: تعالوا إلي أيها العطاش والناشفو الحلاقيم وأنا أرويكم!

فهب الجميع من أسرتهم وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم وأخذوا ينظرون إلى الزجاجة نظر من لا يزال مشككاً في أن بينها وبين الوسكي أقل قرابة أو صلة.

لكن شورتي ما عتم أن بدد شكوكهم إذ أخبرهم بجد أن ما في الزجاجة هو سبيرتو من أعلى طبقة وأنه ككيماوي قد فحصه فوجده لا يضر إذا مزج بقليل من الماء، وأن له من الفعل ما للوسكي بل أكثر، وأنه وجد الزجاجة في مستودع العقاقير والأدوية الذي نسي وكيل المستشفى إقفاله فجاؤوا في الحال بالكؤوس وأداروا الراح وانخفضت أصواتهم من الضجيج إلى الهمس كأنهم يتممون سراً إلهياً. ودعوني لمشاركتهم فرفضت. وخوفاً من طارئ يطرأ أوفد شورتي واحداً من الزمرة إلى الباب ليحرسه، ثم سكب لنفسه من الزجاجة كأساً طافحة ورفعها بيده وخاطب رفاقه قائلاً:

"أيها الإخوان! لقد جمعتنا أغرب المصادفات في أغرب الأحوال فتعاشرنا وتآلفنا وتحاببنا. وقد ربطتنا رابطة النكبة المشتركة. وكلنا ضحية الغازات الخردلية"

فضحك السامعون عند ذكر الغازات الخردلية هاتفين: الغازات الخردلية، الغازات الخردلية. يا لها من غازات سامة قتالة.

واستأنف شورتي كلامه:

"لقد جئتكم غريباً عنكم فأصبحت واحداً منكم. جئتكم فوجدتكم مستسلمين لليأس ووجدت اليأس يقرض قلوبكم قرضاً حثيثاً، فحاولت أن أخفّف من بلواكم. فأقمت من نفسي لكم مهرجاً. وقد نجحت بما قصدت. فلقد مكثت بين ظهرانيكم نحو الشهر. فمر الشهر ونحن بين ضحك ولعب حتى نسينا الخردل وغازات الخردل. ما طلبتم إلي شيئاً في طاقتي وضننت به. ولا سألني أحدكم أمراً وخيبته. بل كرست لكم كل وقتي من نهوضي من الفراش حتى عودتي إليه. أقول ذلك لا طلباً لأجر أو رغبة في ثواب. فما ثوابي إلا محبتكم ولا أجري إلا أن أكون رفيقاً لكم وتكونوا رفاقاً لي. غير، بدالة الرفقة والمعشر أرغب إليكم أمراً زهيداً فهل تجيبون طلبي"؟

فهتف الجميع بصوت واحد: اطلب ما بدا لك يا شورتي فكلنا رهن أمرك!

فاستطرد شورتي خطابه:

"ما شككت قط يا إخوان في أن خاطر شورتي عزيز لديكم. فما أطلبه هو أن تتركوني الليلة مرتاحاً فلا تسألوني سؤالاً ولا تخاطبوني بكلمة ولا يقترب أحدكم من فراشي. فإني أرغب أن انفرد بنفسي لأني بحاجة إلى الراحة والانفراد.

"لقد شربنا وفرحنا وضحكنا. والآن فلنشرب أيها الأخوان سر اجتماعنا بغير ميعاد، فكما جمعتنا مصادفات غريبة هكذا ستفرقنا مصادفات غريبة وأحوال غريبة. فمن يدري ماذا يضمر الغد؟"

وشـرب كأسـه حتـى الـثمالة وشـرب الآخـرون. وإذ ذاك رفـع الـزجاجة الفارغة بيده ورمى بها إلى الأرض فطارت شظايا، ثم التقط واحدة منها وجرح بها إصبعه حتى سال دمه وأتى بمكنسة فكنس الشظايا. وأخيراً دخل مستودع العقاقير وجاء بقليل من الشاش وربط به إصبعه وانطلق رأساً إلى فراشه وارتمى عليه، كل ذلك بأقل من لحظة والتسعة الآخرون ينظرون مبهوتين كأن قد انقضت عليهم صاعقة.

كنت أرقب شورتي وهو يخطب فرأيت في ملامحه معاني جديدة وسمعت في صورته رنة غريبة. فما جاء على آخر خطابه حتى تقلصت عن وجهه ابتسامته الخلابة وادلهمت عيناه وكأني رأيتهما قد تبللتا.

ويظهر أن الآخرين قد لاحظوا ما لاحظت فلم يأخذوا كلامه على مأخذ المزح وانصرف كل إلى فراشه. إن تكلموا فهمساً، وإن مشوا فعلى أطراف أقدامهم. وقد سمعت جاري يهمس بأذن جاره: ماذا ترى حل برفيقنا شورتي؟ فهو يخاطبنا الليلة كأنه يودعنا. فهل تقرر شفاؤه وعرف أنه سيخرج غداً؟ هنيئاً له، أما نحن فنعلم العلم اليقين أن لا شفاء لنا!

***

الثلاثاء:

هاقد مر أسبوع منذ سطرت آخر كلمة في مذاكرتي وحتى الآن لم أجد في يدي قوة لأحمل القلم واكتب.

لقد تم ما قاله شورتي في خطابه عن أن مصادفات غريبة جمعتنا في أحوال غريبة وستفرقنا مصادفات غريبة وأحوال غريبة. فعقدنا قد انفرط ونحن اليوم بدون شورتي...

بعد أن أقفلت دفتري ليلة الثلاثاء الفائتة وأطلقت روحي في عالم الأحلام شعرت، والنعاس يطبق أجفاني، بيد تهزني فأفقت كالملذوع وسمعت صوتاً يهمس في أذني: "لا تخف! سألتك بالله أن تنهض، وإياك أن تنبس بكلمة!".

فعرفت صوت "شورتي"، وقبل أن أتغلب على دهشتي سمعته يسألني: "هل عندك قلم رصاص؟ هل عندك شمعة؟ هل عندك ورق؟ أنر شمعتك واجلس. هاك ثقاباً. على مهلك. على مهلك. كيلا توقظ أحداً".

فأنرت شمعتي وجلست في فراشي وإذا بشورتي واقف بجانب سريري وعليه بزته الجندية بكاملها من الحذاء حتى القبعة. إصبعه ملفوفة بالشاش وشعره الأسود نافر من تحت قبعته وعيناه تقدحان شرراً. وبدون أن يفسح لي مجالاً لأسأله ماذا عسى أن يعني كل ذلك قال لي: "قم واتبعني. لا تَسَلْ. هات الشمعة معك. ولا تنسى القلم الرصاص والورق. اتبعني وإياك أن يسمع لقدميك صوت".

فلم أمانع لأني شعرت للحال أن إرادتي قد انسحبت مني فأصبحت بين يديه كالطفل يقودني كيف شاء ويفعل بي ما أراد.

لذلك تبعته فأدخلني مستودع العقاقير وأقفل الباب. ثم أمرني أن أركز الشمعة على طاولة هناك، وأجلسني على صندوق من الخشب

ووقف بجانبي ثم قال: "لا تطرح علي أسئلة فستفهم كل شيء. ولا تستغرب مناداتي لك باسمك، فأنا أعرفك وأعرف اسمك. لقد وجدت فيك فضيلة لم أجدها في سواك. وهي فضيلة السكوت. وسكوتك ليس سكوت الأبله بل سكوت المفكر المتعمق. فأنت لا تعرقل أفكارك بالكلام لأنك تعرف لذة السكوت. لذلك قد اخترتك من بين الآخرين لأنك تفهم وهم لا يفهمون. فخذ قلمك واكتب، لأن يدي لا تطاوعني على الكتابة:

"سيدي المحترم ودرو ولسن".

فكتبت ذلك ووقفت استعد لكتابة ما يلي. غير أنه بلمحة طرف انتشل القلم من يدي ومد خطاً فوق ما كتبت وأرجع إلي القلم قائلاً:

ـ لا بل اكتب:

"إلى حضرة الجنرال دجان برشنغ قائد الحملة الأميركية العام..." هل كتبت ذلك؟ لا، الأفضل أن تمحوه!

هل محوته؟ اكتب هكذا:

"عزيزتي فلانة:"

" لا أدعوك باسم لأني من بين كل أسماء النساء لم أجد اسماً يليق بك. والأسماء بين الناس تستعمل كالدمغة للماشية ليميز واحدها عن الآخر. فهي لا تؤدي صفات المسمى. وصفاتك لا يستوعبها اسم، فأنت أرفع من أن تسمي وأجل من أن توصفي".

"أنت لا تعرفينني أما أنا فأعرفك، وإن كنت لا أعلم من أنت ولا أين ولدت ومتى. فأنا موقن بأنك تتنفسين في هذه الدقيقة في مكان

ما، في بلاد ما. أنت قبيحة المنظر في أعين الناس جميلته في عيني. فأنا أحب أنفك الأفطس وذقنك المستطيلة وأحناكك النافرة وجبينك المغطى بالشعر وعنقك الضائع بين رأسك وكتفيك، وكتفيك المحدودبتين وصدرك الملتصق بظهرك وخصرك الذي يحجب وركيك. أحب حاجبيك الكثيفين وأحب عينيك الصغيرتين ففيهما قد تجلت روحك.

"لقد حفظت جسمك طاهراً من الأقذار أما أنا فقد دنست جسمي بكل أدران العالم لأن مرضاً خبيثاً يأكل لحمي وينخر عظمي ويمتص دمي..."

هنا ارتجفت يدي واقشعر بدني فلم أتمالك من أن أقف عن الكتابة وأرفع بصري إلى "شورتي"، وإذ رأى الدهشة على وجهي والسؤال في عيني قال وكأن الكلمات تتسابق للخروج من بين شفتيه:

ـ ما لك وقفت؟ أأدهشك ذكر الداء الخبيث؟ ألا تدري أنني مصاب به؟

قلت: لقد سمعتك مراراً تشكو من الحروق، من الغازات الخردلية.!

فأجاب هازاً رأسه وعلى وجهه ابتسامة مرارة وحزن عميق:

ـ ذاك اصطلاح نسير عليه هنا من باب "الكموفلاج" وما كنت أحسبك جاهلاً لهذا الحد، والآن أحلفك بالله ألا تقاطعني فيما بعد. تابع الكتابة:

".... فأنا جيفة حية بين أجياف متحركة، ويداي ملطختان بدماء بريئة لأني جندي وعمل الجندي القتل. لقد حرمت أكثر من زوجة لقاء زوجها، وحبيبة عودة حبيبها. وقد أوجدت في العالم أكثر من ثكلى، وأكثر من يتيم ويتيمة. ولقد بعثرت أكثر من أمل وفقأت أكثر من عين، ودمرت أكثر من بيت. لذاك دعاني الناس شجاعاً، وكافأوني بما يحسبونه شارات شرف وفخر. غير أني مجرم في عينيك، وأنا مقر بجرمي ولا أطلب صفحاً، فطلبي الصفح منك هو إهانة لك. ولقد سببت لك أكثر من إهانة، فهل أضيف الآن إلى الطين بلة؟.

"لو كنت أجهلك لكنت أطلب منك صفحاً. غير أني أعرفك وأعرف أنك لو كنت مكاني لفعلت ما أنا عازم أن أفعل. وماذا يفعل جاهل جازف بحياته فخسرها؟ ماذا تفعل جيفة متحركة؟ وإن تسأليني كيف جازفت بحياتي، ولماذا فإليك الخبر: "أنا لا أعرف لي أباً ولا أماً، وقد سمعت البعض يقولون إني لقيط. وسواء كنت لقيطاً أم لطيماً، فالذي أعرفه أنني ربيت بلا أب ولا أم، وهكذا نشأت في العالم. ولا أدري من الذي وضع بين ضلوعي قلباً لم يختلج في صدر بشر قلب نظيره، كأن دمه كبريت ملتهب وشرايينه أسلاك كهربائية تربطه بكل ما رسا ودب ومشى وطار على وجه الأرض وفوق وجه الأرض.".

"حملت هذا القلب ستة وعشرين ربيعاً بين الناس ولم أجد بينهم من كان قادراً أن يلتهب بلهيبه. لا بل لم أجد بينهم من أدرك أني أحمل في داخلي قلباً مستعراً. إذا كشفت لأحدهم عن قلبي وأحس بلهيبه هرب. وإن رششت على قلبي رماداً من رماد عادات الناس

وطقوسهم وتأدبهم وتسترهم، حسبوني جماداً ولم يروا مني سوى أنفي الأفطس وساقي القصيرتين وشعري المنتصب على رأسي كالحراب. ستة وعشرون ربيعاً قضيتها بين الناس وفي صدري أتون من الحب. فلم أجد من تجاسر أن يدني قلبه من قلبي ليحترقا معاً أمام مذبح الحب. ولا كان قلبي يحترق فاستريح. ولا زيت الحب ينضب فتهدأ نيرانه. وجاءت الحرب فقلت هذه فرصة ثمينة فلأغتنمها ولأحول نار الحب في قلبي إلى نار بغضاء. فالبغض قد أصبح اليوم دين العالم. وإذا اتقد قلبي بنار البغض اتقدت معه قلوب. فليحترق قلبي مبغضاً إذا تعذر عليه أن يحترق محباً.

"وهكذا تطوعت في الجندية. ثم سألت نفسي: ها أنا اليوم مبغض بين مبغضين، وناقم بين ناقمين، فعلى من أغضب وممن انتقم؟ فسمعت رفاقي يندون بالأوتقراطية والاستبداد والظلم والبربرية والقوة المطلقة. فقلت ها هم أعدائي فلأصبن عليهم كبريت نقمتي. وذهبت بنار بغضائي إلى ساحة القتال فلم أجد هناك لأعدائي من أثر. وجدت جهلاً يناطح جهلاً، وبشراً يذبحون بشراً، وكلهم مدفوع لا دافع. فأدركت أن الناس لا يقدرون أن يبغضوا إلا الناس وأنهم قاصرون عن بغض شر مجرد كما أنهم قاصرون عن حب خير مجرد. ووجدت نار بغضائهم كنار حبهم، شرارة لا تكاد تلمع حتى تنطفئ".

"حينئذ رششت على نار بغضائي رماداً ورحت بين الناس أمدح ما يمدحون وأذم ما يذمون. وكفنت قلبي بابتسامة بسطتها على وجهي. فرأى الناس ابتسامتي فأحبوها، أما القلب المكفن فلم يروه ولم يحفلوا به. ودفنت بلواي تحت مظهر المجون فأعجب الناس به ولم

يشعروا ببلواي. وقلت أسير مع الناس حتى النهاية فأتنعم بما يتنعمون. فدخلت كهوف ملذاتهم وخرجت منها كما أنا اليوم "جيفة حية". وما كنت لآسف على قلب خمدت فيه نار الحب، وجسم ينخره اليوم سوس الفحشاء، لو لم يتراء لي شخصك في المنام".

"فلقد أدركت الآن أن القلب الذي كنت أبحث عنه، والروح التي كنت أنشدها هما حقيقتان لا خيالان. فذاك القلب هو قلبك، وتلك الروح هي روحك، وأنت حيثما كنت فإنك حقيقة لا وهم".

"ولماذا لم أعرفك قبل أن خمدت نار حبي وفارقتني طهارة الجسد ونقاوة الروح"؟

"لماذا لم ألتق بك يوم كنت أحمل في صدري مشعلاً وكانت روحي خليلة الفضيلة وجسمي أنقى من الثلج"؟

"أما الآن فقد عرفتك لتزداد حرقتي. عرفتك بعد أن لم يبق لي ما يليق أن أقدمه لك. فأنت لا ترضين بي كما أنا. وأنا لا أرضى أن أدنس طهارتك بقذارتي ولا أن أطفئ حبك برماد حبي".

"هل مللت هذياني؟ ومن إلاك يفهم هذيان روحي؟ فأنت ترين ما لا يرى، والناس لا يرون إلا الظواهر. وأنت تدركين عظم حرقتي، والناس يرون ابتسامتي ويسمعون مجوني فيقولون: هنيئاً له، فهو بعيد عن الهم والهم بعيد عنه".

"لذلك وإن فقدت حياتي فقد وجدتها اليوم في قبضتك. ولكي أكون أهلاً للحصول عليها سأطهر نفسي وجسمي من كل أدرانهما وسأعود إلى موقد الحب فأنفض الرماد عن قلبي وأضع محله قبساً من

ذاك الموقد، فيعود قلبي يشتعل وحينئذ نجعل من قلبينا مشعلاً يلتهب ولا يحترق. فإلى اللقاء ـ شورتي".

***

كتبت آخر كلمة وقد اعترتني هزة وتضعضعت أفكاري كأن دماغي قد تحول إلى مسحوق دقيق ذرته يد خفية في هاوية تلبدت بدخان. ورفعت عيني إلى شورتي فما كدت أصدق عيني لأني رأيت شبحاً غريباً قد حل محله كأنه خيال من عالم آخر. رأيت وجهه بلون التراب وعينيه كأنهما من زجاج وقد فارقهما كل ما كان فيهما من نار ونور. وتحركت شفتاه فخيل إلي أن الموت واقف بجانبي يخاطبني وسمعته يقول لي: اتل علي ما كتبت!

فدخل صوته في أذني كصرير الأسنان أو كقضقضة العظام. فتلوت عليه الكتاب من أوله، وما أتيت على آخره حتى سمعته يخاطب نفسه وهو لا يزال واقفاً كالطيف: "هذيان... هذيان... فهل ترى تفهم هذياني؟ بلى تفهمه. ففي قلبها نار كالتي كانت في قلبي. وهي الوحيدة بين بنات حواء التي تحمل في صدرها ناراً...".

ثم وضع يده على كتفي وقال دون أن ينظر إلي:

ـ اطو هذه الرسالة وضعها في غلاف واحفظها في جيبك إلى أن يأتي وقتها. سألتك بالله أن تحتفظ بها كما تحتفظ بحدقة عينك. وإذا عدت من الحرب سالماً ـ وأنت ستعود سالماً ـ فسلمها إياها بيدك أسمعت؟ بيدك لا بيد سواك، إذ ليس من يصلح رسولاً بيني وبينها إلا أنت. والآن عد إلى فراشك فقد حرمتك قليلاً من النوم".

قال ذلك وأخذ يدي بيده فشعرت كأنني أصافح الموت، ثم استطرد كلامه:

ـ أشكرك يا أخي، وليحفظك الرب لتبقى طاهر العقل والقلب والجسد. لا تسألني إلى أين أذهب، فأنا ذاهب إلى المطهر. وداعاً!.

وتوجه نحو الباب ففتحه وخرج، ثم عاد بعد هنيهة وقال لي:

ـ إذا سألكم وكيل المستشفى أو الطبيب عن زجاجة السبيرتو فقولوا له أن "شورتي" جرح إصبعه فوجد زجاجة السبيرتو وأحب أن يغسل جرحه فوقعت الزجاجة من يده وتحطمت.

وعاد فخرج وكأن قلبي خرج من صدري معه.

وبقيت برهة كالمأخوذ أحاول جمع شتات أفكاري فلا أقدر. ثم نظرت إلى شمعتي فإذا بها ترمي آخر ذرة من شعاعها المتلاشي. فنفخت عليها نفخة خفيفة وعدت كالسكران أبحث عن سريري بين الأسرة. وغطيط رفاقي لا يزال يتصاعد في فضاء القاعة متوازناً متواصلاً. فخيل إلي أن ذلك الغطيط لم يكن إلا أنات مخنوقة خارجة من صدور أناخ عليها الموت بكلكله. وأن تلك الأسرة لم تكن إلا لحوداً تضم أمواتاً لم يدركوا بعد أنهم قد ماتوا، والعالم يدعوهم "حماة الوطنية ونصراء العدل والحرية...".

وارتميت على فراشي منهوكاً وعيناي تجولان في الظلمة فلا تبصران، وأفكاري تسبح في الفضاء فلا تجد ما تستقر عليه. وبينما أنا كذلك إذا بصوت الخفير خارجاً: هالت! قف! من القادم؟

وعقب ذاك سكتة قصيرة ثم: قف! وإذا لم تقف صببت عليك النار!

ودوى الرصاص، فأجفلت وانقبض قلبي وتململ جاري على فراشه، وتمتم بضع كلمات لم أفهمها، ثم انقلب من جانب إلى جانب وعاد يغط وعادت سكينة الليل رهيبة مخيفة جليلة.

كلما نظرت إلى فراش "شورتي" ورأيته فارغاً مهجوراً هجمت الدموع إلى عيني وفاضت قسراً عني.

غير أني أتعزى بأن شورتي اليوم في مطهره. فهنيئاً له!".

1919

للمؤلف :

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهب الريح
دروب

أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (3 أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirw of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve
Other Stories

الفهرس

ميخائيل نعيمه تقديم: مالك صقور..................................5
سَاعَة الكوكُو..21
سَنتها الجَديدة 48
العَاقِر..60
الذخيرة..87
سَعَادة "البيك"..95
شُورتي...104